الخليفة العادل

عمر بن عبد العزيز

للأطفال

تأليف

عبد العزيز الشناوي

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وبعـــد ..

لقد ظننت أن كتاباتى عن السيرة النبوية ، وسيرة الصحابة ، وعصر الوحى الذى بهرنى دائماً جماله وجلاله وأخذ بألباب القراء ستتوقف عند أصحاب وصاحبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ولكن ما لبثت أن رأيت رجلاً لم ينتم لعصر الوحى ، فقد ولد بعد انقطاع الوحى بعشرات الأعوام ..

والحقائق تروى لنا عدله وروعة بساطته ونبل روحه ومنهجه وسمو زهده مما جعله ينتمى إلى عصر الوحى ..

بل نقل عصر الوحى وقداسته وعدله إلى دنيا مفتونة بالترف والقهر والجور ..

ذلك الرجل هو معلم العلماء ..

ومعجزة الإسلام ..

أبو حفص حفيد عمر بن الخطاب ..

الخليفة العادل الورع التقى عمر بن عبد العزيز ..

وآمل أن يعيش أبنائى الأطفال والشباب ماضى أمتهم الإسلامية المجيد ويقتدوا بالشخصية الإسلامية الرشيدة التى أسهمت فى بناء دولة الإسلام وملأت الأرض عدلاً .

والله الموفـــق ...

عبد العزيز الشناوى

بنت بائعة اللبن

أبنائى الأعـزاء

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذا أراد أن يتفقد شئون رعيته يطوف بالليل فى طرقات مدينة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وذات ليلة طال المطاف بالفـاروق فـجلس يستـريح وقد أسند ظهـره إلى جـدار بيت ، وإذا به يسـمع امـرأة داخل البـيت تقول لابنتها :

ـ يا ابنتى قومى إلى اللبن فامذقيه[1] بالمـاء فإنك أصبحت .

فقالت الفتاة :

ـ أو مـا علمت يا أمـاه بما كـان من عزمـة[2] أمير المؤمنين اليوم ؟

قالت الأم :

ـ وماذا كانت من عزمة أمير المؤمنين يا بنيتى ؟

قالت الفتاة :

ـ لقد أمر منادى فنادى فى الناس ألا يشاب[3] اللبن بالماء .

فقالت الأم محرضة :

---

(١) أمذقيه : اخلطيه .

(٢) عزمة : أمر .

(٣) يشاب : يخلط .

ـ قومى يا ابنتى إلى اللبن فامذقيه بالمـاء حتى يزيد فنكسب أكثر فإنك بموضع لا يراك فيه أمير المؤمنين عمر ولا منادى عمر .

فقالت الفتاة فى انفعال وغضب :

ـ لا يا أماه لقد نهانا الإسلام عن الغش حيث قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا » . يا أماه إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن رب عمر يرانا ، ويطلع على أفعالنا .

سمع الفاروق الحوار الذى دار بين الفتاة وأمها فأعجب بفتاة لم تقبل الغش ، ولم تحرض على الربح غير المشروع ، ولم تفضل طاعة والدتها على طاعة الله عز وجل ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، كما أنها تؤثر مراقبتها للسميع البصير على كل شيء .

نظر أبو حفص إلى مولاه[1] أسلم وقال له :

ـ يا أسلم علم الباب واعرف الموضع .

فميز أسلم البيت .. ثم سارا فى طريقهما .

ولمـا أصبح قال الفاروق لمولاه :

ـ يا أسلم امض إلى ذلك الموضع فانظر أمرهما .

فانطلق أسلم فرأى الفتاة وأنها أيم[2] وأمها ثيب[3] .

---

(١) مولاه : خادمه .

(٢) أيم : لا زوج لها .

(٣) ثيب : تزوجت قبل ذلك .

وأتى أسلم أمير المؤمنين عمر فقال له :

ـ الفتاة لا بعل[1] لها والأم ثيب وهما من بنى هلال .

فجمع الفاروق أولاده وقال لهم :

ـ هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه ؟

فقال عبد الله بن عمر :

ـ إن لى زوجة .

وقال عبد الرحمن بن عمر :

ـ لى زوجة .

فقال عاصم بن عمر :

ـ يا أبت إنه لا زوجة لى فزوجنى .

فقال أمير المؤمنين عمر :

ـ اذهب يا بنى فتزوجها فما أحراها أن تأتى بفارس يسود العرب .

وبعث الفاروق إلى الفتاة فعقد لها على ابنه عاصم .

وذات يوم استيقظ أمير المؤمنين عمر من نومه وهو يمسح حبات عرق عن وجهه وفرك عينيه وقال :

ـ من هذا الذى من ولد عمر يسمى عمر يسير مسيرة عمر؟

وراح أبو حفص يردد هذا السؤال مرات .. ثم قال :

ـ ليت شعرى من ذو الشج[2] من ولدى الذى يملأ الأرض عدلاً كلما ملئت جورا [3] ؟

(١) بعل : زوج .

(٢) ذو الشج : الجرح فى الرأس أو الوجه .

(١) جوراً : ظلماً .

ثم ختم حديثه لنفسه قائلاً :

ـ إن من ولدى رجلا بوجهه أثر يملأ الأرض عدلا .

وولدت ابنه بائعة اللبن بنتا فسماها عاصم بن عمر :

ـ أم عاصم .

وقام عاصم بن عمر بتربية إبنته أم عاصم تربية صالحة ، فعرفت طريق الزهد والتقشف والعبادة ،. وبسطت يدها بالخير والبر .

وتزوجت أم عاصم عبد العزيز بن مروان .

* * *

في قصر الأمير

ولدت أم عاصم مولوداً سماه أبوه :

ـ عمــر .

ولد عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وستين من الهجرة وقيل سنة ثلاث وستين من الهجرة ، وكانت ولادته بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وشب عمر بن عبد العزيز وعقل وهو بعد غلام صغير ، فقد كان يأتى الصحابى الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه ، ثم يرجع إلى أمه فيقول :

ـ يا أمه أنا أحب أن أكون مثل خالى[1] .

(١) خالى : يعنى عبد الله بن عمر .

فتؤفف به وتقول له :

ـ اعزب أنت تكون مثل خالك ؟

وركب عمر بن عبد العزيز دابة من دواب أبيه فسقط عنها فشج[1] فقيل له :

ـ الأشج .

ولقب بذلك .

وكان عبد العزيز بن مروان والد عمر أحد الأقطاب من بنى أمية ، فقد نشأ فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى الحديث .

وتولى عبد العزيز بن مروان إمارة مصر فسار إليها ، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه بولدها عمر ، فأتت عمها عبد الله بن عمر بن الخطاب وأخبرته بكتاب زوجها إليها ، فقال ابن عمر :

ـ يا ابنة أخى هو زوجك فالحقى به .

ولما أرادت أم عاصم الخروج من المدينة والسفر إلى مصر قال لها عبد الله بن عمر :

ـ خلفى هذا الغلام عندنا [2] فإنه أشبهكم بنا أهل البيت .

فخلفت عمر بن عبد العزيز عنده ولم تخالفه .

ولما قدمت أم عاصم مصر على عبد العزيز بن مروان وأخبرته بخبر ابنه عمر سر بذلك ، وكتب إلى أخيه عبد الملك ابن مروان يخبره بأمره .

---

(١) فشج : فجرح .

(٢) عندنا : يريد عمر .

فكتب عبد الملك بن مروان أن يجرى عليه ألف دينار كل شهر .

واختط عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان ، ووضع قريباً منها مقياس حلوان . وكان عبد العزيز مضيافا واسع الكرم ، وكان ورعاً متحرزاً يتطلب الحلال ، ويباعد نفسه عن الحرام .

وكتب عبد العزيز بن مروان إلى صالح بن كيسان بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله أن يتعاهد عمر فى تأديبه وتربيته وتهذيبه واستصلاحه .

لقد عنى عبد العزيز بن مروان بتربية ابنه منذ نشأته لأن المدينة كانت أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، فقد شرفت زمن النبوة بأن كانت مهاجر خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم حدث أكثر حديثه وشرع جل[1] شريعته ، وظلت من بعده صلى الله عليه وسلم مقر الخلافة الإسلامية أيام أبى بكر ، والفاروق ، وعثمان ، وموطنا لكبار الصحابة وأئمتهم الأعلام واشتهر بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من علمائها الأجلاء منهم: زيد بن ثابت الأنصارى ، فقد كان لا يقدم عليه أحد فى القضاء والفتوى والفرائض[2] والقراءة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب الذى كان يحمل لقب عالم هذه الأمة ، فقد كان إماماً فى علم الحديث ، ثم تلقى عن هؤلاء العلماء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة كثير من علماء التابعين من أشهرهم : سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير .

(١) جل : معظم .
(٢) الفرائض : المواريث .

من أجل ذلك كان طلبة العلم يقصدون إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتى البلاد لينهلوا[1] من موارد علومها ، فلا غرو [2] أن يوافق عبد العزيز بن مروان على بقاء ابنه عمر فى المدينة ليتأدب بها .

فى هذه البيئة العلمية التى نشأ فيها عمر بن عبد العزيز وعلى أساتذتها فقد روى الحديث وتلقى الفقه على جماعة من الصحابة منهم : أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عبد الله بن عمر وهو عم أم عاصم ، وعبد الله ابن جعفر بن أبى طالب ، وعن جماعة التابعين منهم عروة بن الزبير ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول :

ـ ما رويت عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أكثر مما رويت عن جميع الناس .

وكان عمر يقول أيضاً :

ـ لأن يكون لى مجلس من عبيد الله أحب إلىّ من الدنيا وما فيها .

وتعلم عمر بن عبد العزيز على يد محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى وغيره من العلماء الجهابذة [3] ، وعلى غيرهم من علماء المدينة وعكف عمر بن عبد العزيز على علوم الدين حتى حذقها .

---

(١) لينهلوا: المنهل : المورد وهو عين ماء ترده الإبل فى المراعى ، والمنهل : الشرب .

(٢) غرو : عجب (٣) الجهابذة : جمع جهبز وهو العالم الكبير الفذ .

وكذلك كانت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الحقبة تزخر بالحياة الأدبية من قرض الشعر ، ورواية أشعار العرب وأخبارهم وأيامهم ، فأخذ عمر بن عبد العزيز بحظه من الثقافة الأدبية ، كما أخذ حاجته من اللغة العربية .

وذات يوم أبطأ عمر بن عبد العزيز عن الصلاة فقال له صالح بن كيسان :

ـ ما حبسك ؟

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ كانت مرجلتى[1] تسكن شعرى .

قال صالح بن كيسان :

ـ بلغ بك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة ؟

وكتب صالح بن كيسان إلى والده عبد العزيز بن مروان بذلك ، فبعث إليه رسولا ، فلم يكلمه حتى حلق شعر عمر بن عبد العزيز .

ولما بلغ مرتبة الاجتهاد غادر مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحق بأبيه فى مصر ..

وفى حلوان التى اكتشف عبد العزيز بن مروان جمال مناخها راح الغلام المتفتح يجرى فى مرابعها ويعب من هوائها .

وترعرع عمر بن عبد العزيز فى قصر والده أمير مصر ، حيث النعيم والترف وحمل لقب سمو الأمير الذى بين يديه ، بل ملء يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء .

(١) مرجلتى : المرجلة التى تسوى الشعر وتزينه .

ولكن هل أقبل عمر بن عبد العزيز على مباهج الحياة وزخرفها ؟ هل استطاعت هذه المباهج وهذا النعيم أن تشغله عن ذكر الله ؟

لقد عاش عمر واستمتع بالترف فى حدود الاستمتاع الحلال المشروع ، فقد درج من بيت الخلافة ورتع فى بحبوبة الملك ، وتفيأ ظلال الإمارة ، وربى فى حجر النعيم ، فقد كان جده مروان بن الحكم الخليفة ، وكان عمه عبد الملك بن مروان خليفة ، وكان أبوه عبد العزيز بن مروان على مصر أميراً .. فكان عمر بن عبد العزيز أعظم أموى ترفا غذى بالملك ونشأ فيه لا يعرف إلا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته فى المكان الذى يمر فيه، وكان يمشى مشية تسمى العمرية، فكانت الجوارى يعلمنها من حسنها وتبختره فيها .

قال رجل :

ـ رأيت عمر بن عبد العزيز ـ وهو شاب ـ وهو أحسن الناس لباساً ، ومن أطيب الناس ريحا ، ومن أخير الناس مشية .

هذا فى صباه وصدر شبابه ، فهل ظل كذلك عندما بلغ مبلغ الرجال ؟؟

وهل ظل متأثراً بموقف الأمويين من على بن أبى طالب وبالأباطيل التى روجوها ضده ؟ وهل تبين عمر بن عبد العزيز وجة الحق فى الصراع الذى نشب بين ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشد الشهيد وبين العائلة الأموية ؟؟

بدأت المفاهيم تتغير

وكرت الأيام ..

وذات ضحى ذكر على بن أبى طالب بسوء فانتقلت كلمة عمر بن عبد العزيز إلى معلمه الصالح عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الذى كان عمر يكن له كل تقدير وتوقير وحب . فلما ذهب عمر إلى الشيخ أعرض عنه ولم يغمره بما عوده من ود . وأدرك الغلام أن فى نفس معلمه شيئاً منه فحاول بذكائه أن يتبين الأمر فتساءل :

ـ هل بدر منى شىء جعل شيخنا .. ؟

فانفجر الشيخ قائلاً .

ـ متى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟

وفهمها الفتى الذكى الرشيد من فوره ..

أدرك أن أدنى فضائل ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان من أهل بدر الذين أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن السميع البصير قد نظر إليهم وقال لهم :

ـ اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

لقد أيقظ ذهنه وأزال عن عيينة الغشاوة التى كانت تطمسهما بهذا السؤال الذكى ، وأقبل عمر بن عبد العزيز على معلمه فى أدب وخشوع وندم وقال :

ـ معذرة إلى الله .. ثم إليك .. ووالله لا أعود لمثلها أبداً .

وعكف عمر بن عبد العزيز على دراسة الخلاف بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وبين معاوية بن أبى سفيان من جديد بعيداً عن لغو الأمويين وأباطيلهم .

وتحول عمر بن عبد العزيز الأموى إلى مدافع عن الإمام على بن أبى طالب فقد اهتدى إلى الصواب فى يسر وزهد الغلام الذى ولد فى أحضان النعيم والترف والإغراء .

وتجنب عمر بن عبد العزيز عن اللغو سواء لغو القول أو لغو العقل ولجأ إلى الصمت المتأمل المفكر والجد المثابر المتزن .

ولما بلغ عمر بن عبد العزيز العشرين من عمره تطلعت نفسه إلى الزواج من ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك ، وكان عمه يريد أن يزوجها له ، وعندما ذهب عمر بن عبد العزيز إلى الشام قال له عمه عبد الملك :

ـ قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك .

فسر عمر بن عبد العزيز بذلك وقال لعمه :

ـ وصلك الله يا أمير المؤمنين ، فقد أجزلت العطية[1] وكفيت المسألة .

وبعد زواج عمر بن عبد العزيز بابنة عمه بقليل ولاه عبد الملك بن مروان امرة خناصرة[2] وكان ذلك سنة خمس وثمانين من الهجرة .

وظل عمر بن عبد العزيز والياً على خناصرة خمس سنين.

---

(١) أجزلت العطية : أكثرت العطية .

(١) خناصرة : بلدة من أعمال حلب .

وكان عبد الملك بن مروان يريد أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ، ويبايع لابنه الوليد بن عبد الملك فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب وقال له :

ـ يا أمير المؤمنين لا تفعل فإنك تبعث على نفسك صوت عار ولعل الموت يأتيه فتستريح منه .

فكف عن أخيه ونفسه تنازعه إلى خلعه .

ومات عبد العزيز بن مروان وكانت وفاته فى جمادى الأول فى مصر فضم عبد الملك بن مروان عمله إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه مصر .

واشتكى عبد الملك بن مروان فقال :

ـ أخاف الموت فى شهر رمضان فيه ولدت ، وفيه فطمت ، وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع لى الناس .

ولما اشتد مرض عبد الملك بن مروان قال بعض الأطباء :

ـ إن شرب الماء مات .

فاشتد عطش عبد الملك فقال لابنه الوليد :

ـ يا وليد اسقنى ماء .

فقال الوليد بن عبد الملك :

ـ لا أعين عليك .

فقال عبد الملك لابنته زوج عمر بن عبد العزيز .

ـ يا فاطمة اسقنى ماء .

فمنعها الوليد بن عبد الملك فقال عبد الملك بن مروان :

ـ لتدعها أو لأخلعنك .

فقال الوليد بن عبد الملك :

ـ لم يبق بعد هذا شيء .

فسقت فاطمة أباها .. فمات للنصف من شوال حين آمن الموت من نفسه .

معجزة الإسلام يتولي إمارة المدينة :

لما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلالة ابنه الوليد بن عبد الملك فولى عمر بن عبد العزيز إمارة المدينة وكان عمر حينئذ فى الخامسة والعشرين من عمره ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين من الهجرة . بعد أن عزل الوليد هشام بن إسماعيل عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واشترط عمر بن عبد العزيز ألا يتحمل تبعة شيء من المظالم[1] وألا يتقيد بتصرفات من سبقه .

وقال للوليد بن عبد الملك :

ـ إنك استعملت من كان قبلى فأنا أحب ألا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور .

فقال أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك :

ـ اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا درهما واحداً .

وقدم عمر بن عبد العزيز مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقله[2] على ثلاثين بعير ، فنزل دار مروان وجعل الناس

(١) المظالم : الشكاوى .

(٢) ثقله : الثقل : متاع المسافر وحشمه .

يدخلون على عمر بن عبد العزيز فيسلمون . ولما صلى الظهر دعا عشرة من الفقهاء الذين فى المدينة : عروة بن الزبير، وأبا بكر ابن سليمان بن أبى خيثمة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عبيد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، فدخلوا عليه فقال لهم عمر بن عبد العزيز :

ـ إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ، لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم ، أو برأى من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأبلغونى .

فخرجوا من عنده وهم يقولون :

ـ جزاك الله خيراً .

وولى عمر بن عبد العزيز على قضاء مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر بن عمرو بن حزم .

ووسع عمر بن عبد العزيز مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأدخل حجرات زوجاته فيه ، واشترى ما بنواحيه وأدخله فيه ، ورفع المنارة وجوف المحراب .. فكان أول من أوجد تجويف المحاريب وسهل عمر الثنايا وهى الطرق فى الجبال أو إليها ، وحفر آبار المياه ، وأنشأ الخزانات والفنادق على طرق الحجاج والمسافرين ، وأنشأ فوارة [1] رائعة .

(١) فوارة : قدر وما يفور من حرها .

وكافأ أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز على تلك الأعمال فجعله عاملاً على مكة والطائف فوق إمارة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى سنة تسعين من الهجرة جعله الوليد أميراً على الحجاز كله ..

وكان عمر بن عبد العزيز يراجع أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وينصحه ويعترض على تصرفات الحجاج بن يوسف الثقفى مما أوجد عداوة بين عمر بن عبد العزيز وبين سفاح ثقيف .

واخترق معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز ذلك الستار الرهيب الذى أحاط الأمويون به أنفسهم وملكهم صارخاً بكلمة الحق تائباً ومتبرئا من مظالم العهد الأموى وآثامه ، ومتحدياً جبابرته وطغاته وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف.

وأناب الخليفة الوليد عمر بن عبد العزيز والحجاج بن يوسف عنه فى موسم الحج وكان معجزة الإسلام يمقت الحجاج بن يوسف أشد المقت بسبب طغيانه وجوره . فكتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك يسأله أن يأمر الحجاج بن يوسف ألا يذهب إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يمر بها برغم أنه يعرف ما للحجاج بن يوسف من مكانة فى نفوس بنى أمية ، وفى نفس الخليفة الوليد بن عبد الملك بصفة خاصة ، وعلى الرغم من إدراك عمر لما يسببه موقفه هذا من إثارة نيران

الحقد والغيظ فى صدر الحجاج بن يوسف الذى كان ذا مقدرة رهيبة على الانتقام لنفسه .

أجاب الخليفة الوليد طلب معجزة الإسلام وكتب إلى الحجاج بن يوسف :

ـ إن عمر بن عبد العزيز كتب إلىّ يستعفينى من ممرك عليه بالمدينة فلا عليك ألا تمر بمن يكرهك ، فنح نفسك عن المدينة.

ولم تشغل الإمارة عمر بن عبد العزيز عن مواصلة التزود من العلم والفقه ، فراح يثرى عقله ويملأ فكره حتى صار فى المضمار حجة وإماما .

وقف أبو النضر المدينى يخاطب علماء مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشير صوب معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز فقال :

ـ إنه والله أعلمكم .

بل إن العالم الجليل مجاهد بن جبير أحد تلاميذ عبد الله ابن عباس والذى عرض القرآن على ترجمان القرآن ثلاثين مرة والذى كان من الأئمة المعدودين قال لمعجزة الإسلام :

ـ أتينا عمر نعلمه فما رجعنا حتى تعلمنا منه .

وقال ميمون بن مهران :

ـ أتينا عمر بن عبد العزيز فظننا أنه يحتاج إلينا فإذا نحن عنده تلاميذ .

وقال الإمام الليث :

ـ ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه ، وما كان العلماء عنده إلا تلاميذ .

فهل هذه الشهادة من أولئك العلماء الكبار إلا صورة باهرة للطريقة التى كان معجزة الإسلام عمر ينمى بها فضائله العقلية والروحية ؟

* * *

حرز الشيطان

وجاء عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن الزبير فقال له :

ـ رأيت البارحة عجباً كنت فوق سطحى مستلقيا على فراش فسمعت جلبة فى الطريق فأشرفت فظننت عسكر العسس[1] فإذا الشياطين تجول كردوسا [2] كردوسا حتى اجتمعوا إلى خربة خلف منزلى ، ثم جاء إبليس فلما اجتمعوا هتف إبليس بصوت عال ، فتسارعوا إليه فقال :

ـ من لى بعروة بن الزبير ؟

قالت طائفة من الشياطين :

ـ نحن .

فذهبوا .. ورجعوا وقالوا :

---

(١) العسس : عس : طاف بالليل .

(١) كردوس : جماعة كبيرة .

ـ ما قدرنا منه على شيء .

فصاح إبليس الثانية أشد من الأولى :

ـ من لى بعروة بن الزبير ؟

فقالت طائفة أخرى :

ـ نحن .

فذهبوا فلبثوا طويلاً ثم رجعوا وقالوا :

ـ ما قدرنا منه على شيء .

فصاح إبليس الثالثة صيحة حتى كادت الأرض أن تنشق ..

فتسارع الشياطين فقال إبليس :

ـ من لى بعروة بن الزبير ؟

فقال جماعتهم :

ـ نحن .

فذهبوا فلبثوا طويلاً ثم رجعوا وقالوا :

ـ ما قدرنا منه على شيء .

فذهب إبليس مغضباً فأتبعوه .

قال عروة بن الزبير لعمر بن عبد العزيز :

ـ حدثنى أبى الزبير بن العوام قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من رجل يدعو بهذا الدعاء فى أول ليله وأول نهاره إلا عصمه الله من إبليس وجنوده : بسم الله الرحمن ذى الشأن عظيم البرهان ، شديد السلطان ما شاء الله كان ، أعوذ بالله من الشيطان .

* * *

عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة

على الرغم من أن بنى أمية جميعاً وبلا استثناء كانوا يهابون معجزة الإسلام ويحترمونه ، إلا أنهم لم يطبقوا المنهج الذى سار عليه .. وراح الحجاج بن يوسف الثقفى ينتهز فرصة بعض المعارضين لسياسة ومنهج عمر بن عبد العزيز فراح ينسج مؤمراته ووشاياته ، فأوغر صدر الخليفة الوليد بن عبد الملك على ابن عمه وزوج أخته وواليه على الحجاز عمر بن عبد العزيز ، فأرسل الحجاج إلى الوليد يشكو إليه استقبال عمر بن عبد العزيز وإيواءه كل الذين يطلبهم الحجاج ليحاكمهم على مؤمراتهم ضد الأمويين ..

وكان السبيل ممهدا لوشاية الحجاج لأن منهج معجزة الإسلام العام . كان السمو بحيث لا يطيق الآخرون من بنى أمية محاكمته بل لا يطيقون معايشته .

وعلم الخليفة الوليد يوما أن بعض الناس فى إمارته يمعنون فى تجريح الخلفاء الأمويين وسبهم فاستدعى معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز وقال له :

ـ ما تقول فيمن يسب الخلفاء ؟ أيقتل .. ؟

فسكت عمر بن عبد العزيز ..

وازداد الوليد عبوساً وتجهما فعاد يتساءل :

ـ ما تقول فيمن يسب الخلفاء ؟ أيقتل .. ؟

وفى إيمان صادق واستمساك بدينه وبفضائله غير ملق

للعواقب بالا قال عمر بن عبد العزيز :

ـ هل قتل نفسا بغير حق يا أمير المؤمنين ؟

قال الوليد بن عبد الملك :

ـ لا ولكنه سب الخلفاء وانتهك حرماتهم .

فقال عمر بن عبد العزيز فى هدوء راسخ :

ـ إذن يعاقب بما انتهك للخلفاء من حرمة ولكن لا يقتل.

فأشار الخليفة الوليد بن عبد الملك باشارة عصبية غاضبة رعناء .. بإنهاء المقابلة ..

فانصرف عمر بن عبد العزيز عنه وهو يتوقع نقمة عاجلة من الخليفة الوليد صورتها كلمات معجزة الإسلام هذه :

ـ فخرجت من عنده وما تهب ريح إلا وأظنها رسولاً منه يدعونى إليه .

وفى هذا الجو المشحون المتوتر قفز الحجاج بن يوسف ليصطاد فى الماء العكر ويصطاد غريمه فألقى سمومه ووشايته فى أذن الخليفة الغاضب الثائر وأقنعه بعزل عمر بن عبد العزيز عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نشر العدل والأمن وذاق الناس حلاوة الرحمة والسكينة وفتح صدره ، كما يفتح أبواب المدينة للهاربين من طغيان الحجاج بن يوسف وغير الحجاج .

وخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة فى شعبان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة .، فلما كان ظاهر المدينة قال لمولاه مزاحم :

ـ يا مزاحم أخشى أن أكون ممن نفتهم المدينة .

هل يشير بذلك القول إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ـ إن المدينة تنفى خبثها .

فأبعد مزاحم عن ذهن عمر بن عبد العزيز هذا الخاطر ..

ومضى عمر بن عبد العزيز مع مولاه مزاحم حتى نزلا مقاطعة له بالشام تدعى السويداء ، وهناك قضى فترة عزلة ، وتفقه وتصوف يطهر فيها نفسه ويطبع روحه على الفقه الأكبر وهو القناعة وكف الأذى وطافت بخاطر عمر بن عبد العزيز وصية أبيه عبد العزيز بن مروان :

ـ اتق الله وأحسن نيتك فى عملك ، فإنه لا دين لمن لا نية له ، وأحسن تدبير مالك ، فإنه لا مال لمن لا تدبير له . وارفق بمن تعامله لأنه لا عيش لمن لا رفق له . وتجوز[1] فى شهواتك ، فإنه لا عقل لمن لا يغلب هواه .

وأعد عمر بن عبد العزيز هذه العزلة لحياة الزهد والتقشف وللجهاد من أجل الحق والناس ..

وكان عمر بن عبد العزيز يعجبه جارية من جوارى زوجته فاطمة بنت عبد الملك فقال :

ـ إنى أسألك هذه الجارية إما بيعاً أو هبة .

فأبت فاطمة بنت عبد الملك عليه ذلك .

---

(١) وتجوز : المقصود : اقصد من شهواتك وتغلب عليها .

الرحيل إلى دمشق

رفع عمر بن عبد العزيز صوته عالياً ضد الفساد والظلم .. وتناقل الناس عنه شتى كلماته اللافحة التى قذف بها فى وجه البيت الأموى الحاكم .

من تلك الكلمات :

ـ الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقرة بن شريك بمصر ، ويزيد بن أبى مسلم بالمغرب ؟

امتلأت الأرض والله جورا .

ورحل عمر بن عبد العزيز إلى دمشق وهناك أخذ ينصح الوليد بن عبد الملك وينتقد أعماله ويقف فى وجه مظالمه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وذهب الوليد إلى الرملة فى فلسطين وهناك مرض وأدركه الموت ..

وولى بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك وكان أحسن حالاً من أخيه الوليد ، ففرح به عمر بن عبد العزيز ولم يكن لسليمان بن عبد الملك ولد يصلح للأمر بعده بل كل أولاده صغار .

وعلى الرغم مما يكنه سليمان لعمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبة فقد خافه والياً ، ومن ثم آثر استبقاءه أخا وإن زاد فناصحا. وكانت روح عمر بن عبد العزيز تسمو صاعدة نحو مطالعها

وكانت العبادة تصقل روحه كما يصقل العلم فكره .

وأخذ عمر بن عبد العزيز يثابر على أداء دوره مبشراً بالفضيلة والحق والخير نذيرا ضد السوء والضلال والشر والطغيان .. فكان يقيس بمقياس الدين القويم كل اتجاهات الدولة فى حروبها وسياستها فى مجتمعها وأخلاقياتها واقتصادياتها ، فيجدها فى كل ذلك جانحة لهوى الخلفاء والأمراء والولاة بقدر ما هى بعيدة عن روح الدين ومنهجه .. فأخذ على عاتقه الجهر بهذه الحقيقة وإعلانها .

واصطحب الخليفة سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز يوما لزيارة بعض معسكرات الجيش فتساءل الخليفة فى زهو:

ـ ما تقول فى هذا الذى ترى يا عمر ؟

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ أرى دنيا يأكل بعضها بعضا وأنت المسئول عنها .

كان جواب معجزة الإسلام كقاصمة الظهر فبهت الخليفة لهذا الرد الذى لم يكن يتوقعه فقال :

ـ ما أعجبك .

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ بل ما أعجب من عرف الله فعصاه وعرف الشيطان فأتبعه وعرف الدنيا فركن إليها ؟

وخرج عمر بن عبد العزيز مع الخليفة سليمان بن عبد الملك

فى رحلة للحج وفى الطريق إلى مكة فتحت السماء أبوابها بماء منهمر ، ففزع سليمان بن عبد الملك وأرعبه السيل الكاسح ونظر فإذا معجزة الإسلام يضحك فسأله :

ـ ألمثل هذا يضحك الناس ؟

فأجابه عمر بن عبد العزيز :

ـ يا أمير المؤمنين هذا فى حين رحمته فكيف به فى حين غضبه ؟

أجل إذا كان المطر الذى هو آثار رحمة الله وغوثه يمكن أن يبتعث الخوف ويوقع الضر فكيف بغضب الله وعقابه ؟ كيف بنقمة الله التى أعدها لتكون نقما ووبالا ؟

مملكة بني أمية

كان عمر بن عبد العزيز يعلم أن الأمر استقر لمعاوية بن أبى سفيان بالشام بعد خدعة التحكيم فى صفين وبعد أن استشهد الإمام على بن أبى طالب على يد عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج ، ثم بعد الصلح الذى عقده معاوية بن أبى سفيان مع الحسن بن على ليحفظ به دماء المسلمين . وأن الأمر استقر لمعاوية فوضع فى دهاء وصبر أساس دولة أموية طويلة العمر ممتدة الزمان ، وأخذ لابنه يزيد الذى هدم بالانحلال والقسوة ما بناه أبوه بالدهاء والحلم ، وورث يزيد بن معاوية الملك أربع سنوات قضاها فى الملك عابثاً جباراً .

وفى مرض موته خلع الملك على ابنه معاوية الثانى حرصاً منه على أن يظل تاج الملك فوق رءوس بيت أبى سفيان . لكن القدر العظيم كان يعد مفاجأة أذهلت الدنيا .. ذاك أن معاوية الثانى ذلك الشاب التقى الورع الزاهد جمع الناس فى يوم مشهود وقام خطيباً فقال :

إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسابقته فى الإسلام وهو على بن أبى طالب . ثم تقلد أبى يزيد الأمر فكان غير أهل له ركب هواه وأخلفه الأمل . وإن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وأباح الحرم وخرب الكعبة[2] وما أنا بالمتقلد أمركم ولا المحتمل تبعاتكم فاختاروا لأنفسكم[3] .

وعكف الشاب الصالح فى داره رافضاً الخلافة حتى لقى ربه راضياً مرضيا ..

وهكذا لم يحرم بيت أبى سفيان آماله فى استبقاء الملك فحسب ، بل تلقى طعنة ووثيقة إدانة رهيبة من أحد بنيه الأبرار .. وشهد شاهد من أهلها فأصاب موقف معاوية الثانى حكم الأمويين بزلزال مدمر خلع قلوب وأفئدة جباريه كعبد الله بن زياد قاتل سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسين بن على فى كربلاء ، فهرب متنكراً فى ثياب امرأة .. وصرع قتيلا .. ثم

(١) عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحسين بن على .
(٢) خرب الكعبة : أمر بضرب الكعبة بالمنجنيق فخربها .
(٣) فاختاروا لأنفسكم : اختاروا خليفة غيرى .

تمزقت الدولة الأموية تمزقاً وضعها على شفا الهاوية وكاد الأمر أن ينتهي لعبد الله بن الزبير بن العوام لولا أن قفز مروان بن الحكم إلى منصة الملك وسط فتن ومؤامرات ماكرة ، فقد كان مروان بن الحكم رئيساً لديوان الخلافة فى عهد عثمان بن عفان، وله مواقف كثيرة تدينه وتدمغه .. وبدأت الدولة الأموية المروانية منهجها فى الحكم بالغدر والقهر ..

وقبل أن يموت مروان بن الحكم الذى لبث فى الحكم عشر شهور أخذ البيعة لولده عبد الملك بن مروان ومن بعده عبد العزيز فسار على نهج معاوية بن أبى سفيان جعلها هرقلية(١) كلما مات هرقل قام هرقل ونهض عبد الملك بن مروان بالأمر ومن بعده ولده الوليد ومن بعد الوليد سليمان .

وساد الفساد فغطى الدولة وحياة الأمة وزيفت القيم والحقائق وعم البطش والقهر .. وأصبح أمر الدولة الإسلامية فى حاجة إلى معجزة .. تجعل من الظلمات نورا .

الخليفة العادل

كان من عادة خلفاء بنى أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف فعل ذلك معاوية بن أبى سفيان حين جعل الحكم لابنه يزيد وفعله يزيد حين استخلف معاوية الثانى ، ثم فعله مروان حين استخلف ولده عبد الملك ، وفعله عبد الملك حين نحى أخاه عبد العزيز وأخذ البيعة لولده الوليد ..

(١) هرقلية : جعلها ملكاً الابن يرث ملك أبيه .

وكان لسليمان ابن اسمه أيوب فعقد له ولاية العهد من بعده ، ولبس أيوب يوماً حلة خضراء ونظر فى المرآة وكان حسن الوجه فأعجبه ما رأى من جماله فقال :

ـ أنا الملك الشاب .

وكانت على رأسه وصيفة له فرأى شفتيها تتحركان عند قوله فتساءل :

ـ ما قلت ؟

قال الوصيفة :

ـ خيرا .

قال أيوب :

ـ فأخبرينى .

وأعاد عليها .. فقالت :

قلت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى　　غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما علمته فيك عيب　　كان فى الناس غير أنك فانى

فما عاش أيوب أسبوعاً حتى أصيب بالحمى ومات سنة تسع وتسعين من الهجرة فى حياة أبيه .

واشتكى سليمان فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة فقال الخليفة لرجاء:

ـ اعرض على ولدى فى القمص[1] والأردية

القمص : قمص قميصاً أى ألبسه قميصا .

فعرضهم عليه فإذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمص والأردية يسحبوها سحبا فنظر إليهم وقال :

يا رجاء :

إن بنى صبية صغار أفلح من كان له كبـار

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ يا أمير المؤمنين يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **قَدْ أفلَحَ مَن تزَكَّى * وَذَكَرَ اسمْ ربِّه فَصلَّى** ﴾[1] .

فقال سليمان :

ـ يا رجاء اعرض على بنى فى السيوف .

فقلدوهم السيوف ثم عرضهم على أمير المؤمنين ، فإذا هم صغار لا يحملونها يجرونها جراً ..

فنظر سليمان إليهم وقال :

إن بنى صبية صيفيون أفلح من كان له ربعيون

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ يا أمير المؤمنين يقول تبارك وتعالى : ﴿ **قَدْ أفلَحَ مَن تزَكَّى * وَذَكَرَ اسمْ ربِّه فَصلَّى** ﴾

فلما لم ير الخليفة فى ولده ما يريد حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لمـا كان يعرف من حاله .

وشاور أمير المؤمنين سليمان رجاء بن حيوة فسأله :

ـ من أعقد له ؟

(١) سورة الأعلى الآيتان : ١٤ ـ ١٥ .

قال رجاء بن حيوة :

ـ عمر بن عبد العزيز .

وسدد له رأيه فيه فوافق ذلك سليمان وقال :

لأعقدن .. عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب .

ورأى عمر بن عبد العزيز رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو يقول :

ـ ادن يا عمر .

فدنا أبو حفص حتى خشى أن يصيبه فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ إذا وليت فاعمل نحوا من عمل هذين .

فإذا كهلان قد اكتنفاه فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ ومن هذان ؟

قال خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم :

ـ هذا أبو بكر وهذا عمر .

ولما اشتد وجع سليمان بن عبد الملك عهد عهداً كتبه بيده ولم يطلع عليه أحدا إلا رجاء بن حيوة كتب فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إنى وليته الخلافة بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك فاسعموا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم .

ولما عاده[1] عمر بن عبد العزيز وبعض أهل بيته رأوا به الموت ..

---

(١) عاده : زاره .

وخلا عمر برجاء بن حيوة فقال له :

ـ يا رجاء أرى أمير المؤمنين فى الموت ولا أحسبه إلا سيعهد وأنا أناشدك الله إن ذكرنى بشيء من ذلك إلا صددته عنى ، فإن لم يذكرنى أن لا تذكرنى له فى شيء من ذلك .

لقد كان عمر بن عبد العزيز لا يريد الخلافة إذ كانت بما تورطت فيه قد صارت عبئاً ثقيلاً على كل ذى تقى وضمير ، وكانت قداسة روحه التواقة إلى مرضاة ربها قد أخذت تنأى[1] به شيئاً فشيئاً عن مغانم الحياة وزخرفها .

قال رجاء بن حيوة :

لقد ذهب ظنك مذهباً ما كنت أحسبك تذهبه أتظن أن بنى أمية يدخلونك فى أمورهم ؟

إن رجاء بن حيوة من علماء التابعين وفضلائهم ، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين عاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه . فهل يفشى سر الخليفة سليمان بن عبد الملك ؟ إن رجاء بن حيوة شخصية جليلة تعرف الحق والخير فتسلك سبيله.

ومات سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين من الهجرة ، فأظهر رجاء بن حيوة كتاب أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بعد أن جمع الناس وأخذ عليهم العهد بالرضا بما فيه .. ثم أعلن العالم التقى الجليل الأمر .. وقام فأخذ البيعة لعمر بن عبد العزيز معجزة الإسلام الورع العادل الطهور من الناس وسلم

(١) تنأى : تبعد .

عليه بامرة المؤمنين ولكن عمر بن عبد العزيز يقول متوسلاً :

أنشدك الله يا رجاء .

كان عمر بن عبد العزيز يريد أن يتنصل من الأمر ولكن رجاء بن حيوة قال له :

ـ أنشدك الله أن يضطرب حبل الناس فقد لقى سليمان ربه وقضى الله عليه الموت .

وقبل عمر بن عبد العزيز الخلافة .

وأقبل رجاء بن حيوة فقال له حفيد عمر بن الخطاب معاتباً :

ـ لقد فعلتها يا رجاء .

فقال رجاء بن حيوة :

ـ أنت لها يا أمير المؤمنين .

فسرت فى جسد عمر بن عبد العزيز رعشة فانتقض وقال :

ـ فدعنى أستنقذ نفسى من عذاب يوم عظيم .

إنها المسئولية الموصولة بالسميع البصير وبما لله عز وجل فى نفس عمر بن عبد العزيز من عظمة ورهبة وجلال .. لن تدعه ينعم ولن تتركه ينام .. إنه لا يريد أن يصبر ساعة على خطأ قديم ارتكبه بنو أمية لا بد من التغيير .. التغيير السريع الحاسم .

* * *

خامس الخلفاء الراشدين

لمـا فرغ عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن عبد الملك سمع للأرض رجة فتساءل :

ـ ما هذه ؟

قالوا :

ـ مراكب الخلافة يا أمير المؤمنين .. هيا لتركبها .

نظر عمـر بن عبـد العزيز إلى البـرازين[١] والخيل والبغـال ، وكان لكل دابة سائس فهز رأسه وقال :

ـ ما لى ولها نحوها عنى أين دابتى ؟ دابتى أوفق لى .

فركب دابته وصرف تلك الدواب ..

وجاء صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة فقـال له عمر ابن عبد العزيز :

ـ تنح عنى ما لى وما لك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

إن الحاكم العادل لا يرى نفسه محتاجاً إلى حرس حوله أو جنود يحمدونه لأنه لا حقد بينه وبين رعيته ، ولا ثأر عنده لأحد من الناس .. والخليفـة الخامس حين قبل الخلافة كـان يضـيق ذرعاً بهـؤلاء الحرس الذين يتقـدمون الخليفـة إذا ذهب أو توجه وكان هناك ثلاثمائة من الجنود ، فقال لهم عمر بن عبد العزيز:

ـ إن بى عنكم لغنى .. كفى بالقدر حاجزاً وبالأجل حارساً

(١) البرذون : الدابة .

ولا أطرحكم من مراتبكم ، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله .

ثم نزل فاندفعت الجموع التى كانت داخل المسجد ، والجموع التى كانت خارجه صوب المنبر الذى كادت تصهره أنفاسهم الحارة .. وحاول عمر بن عبد العزيز أن يجد له وسط الجموع طريقاً ولكن أصواتهم الصادعة المبايعة المؤيدة لسياسته الحكيمة قد حولت المناسبة إلى مهرجان.

وراحت أذرع الناس المشرعة تلوح وتخفق كأنها رايات ظافرة وعيونهم المغتبطة تبرق بفرحة العمر وبهجة الحياة المقبلة .. فأجهش حفيد عمر بن الخطاب بالبكاء ودخل بيته .

وأمر حفيد الفاروق بالستور[1] فهتكت والثياب التى كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها فى بيت مال المسلمين .

وأمر الخليفة الخامس مولاه مزاحم بالقرطاس وبالقلم وبالدواة .. وأقبل كالاعصار يكتب .. ويأمر على عجل :

إلى مسلمة بن عبد الملك ليعود بجيشه من القسطنطينية ..

وإلى أسامة التنوخى .. يخبره بعزله عن خراج مصر ويدعوه ليقدم حسابه ..

وإلى يزيد بن أبى مسلم .. يخبره بعزله عن أفريقيا ويدعوه ليقدم حسابه ..

---

(١) الستور : ستر الشىء غطاه .

وأمر عمر بن عبد العزيز أن تحمل الكتب فوراً إلى أصحابها.

وبهت الأمراء الأمويون لما رأوا وتهامسوا فى عجب وحنق :

ـ إنه الولع بالسلطان لا يدعه يصبر ؟

كانوا أعجز من أن يبصروا روح القداسة التى تعمل فى صدر حفيد الفاروق ..

وكانت عجلة الخليفة الصالح فى البدء بهذا الثالوث لتكشف عن ولائه الوثيق لمسئولية الحكم ومنهجه الجديد فى تحمل المسئولية وتحول الظلمات إلى نور ، والفساد إلى إصلاح .

فأما مسلمة بن عبد الملك فقد كان على رأس جيش كبير يحاصر القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية وكاد الحصار يؤتى أكله وتفتح أبواب العاصمة لولا خدعة مكرها القائد الرومانى « إليون » فرجعت القوة الإسلامية عجزاً واستحال نصرها هزيمة .. وضاعت الفرصة وانقطع خط التموين وتفشى المرض والمجاعة فى جيش المسلمين ورفض سليمان بن عبد الملك أن يصدر أمره للجيش بالعودة فهل كان تحت وطأة كبريائه الشخصى وشرف بنى أمية ؟ كان يأمل أن تتحسن الظروف فيمدهم بإمدادات وقوات جديدة ؟ وكان عمر بن عبد العزيز يرى الجيش المتداعى فريسة للضياع فتميز غيظاً وألح على الخليفة باستدعاء الجيش ، ولكن سليمان بن عبد الملك رفض فلا رأى لمن لا يطاع .

فلما كان الأمر إلى عمر بن عبد العزيز لم يرجئ الأمر .

أما عزل أسامة التنوخى عن خراج مصر ، فقد كان غاشما ظلوماً مسرفا فى العقوبات بغير ما أنزل الله . يقطع الأيدى ، ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه ، ثم يطرحها فى النيل للتماسيح. فهل يسكت رجل مثل عمر بن عبد العزيز طرفة عين على أمثال هؤلاء ؟ لقد نصح سليمان بن عبد الملك بوجوب عزله ، ولكن الخليفة لم يلتفت لقوله .. والآن وقد صار صاحب الكلمة فلن يدعه فى منصبه لحظة ..

وأما عزل يزيد بن أبى مسلم عن أفريقيا فقد كان هو الآخر طاغية متجبراً يجد متعة ولذة فى أن يرى الناس يعذبون ويذوقون نكاله ..

لقد أمر عمر بن عبد العزيز بالتغيير السريع الحاسم على مستوى الدولة ..

وقيل للخليفة الخامس :

ـ تنزل منزل الخلافة ؟

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ فيه عيال أبى أيوب[١] وفى فسطاطى[٢] كفاية حتى يتحولوا.

وأقام خامس الخلفاء الراشدين فى منزله حتى ترك عيال

---

(١) أبو أيوب : سليمان بن عبد الملك .

(٢) فسطاط : بيت من شعر .

سليمان بن عبد الملك منزل الخلافة .

وسار حفيد الفاروق وسار معه الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر وقال :

أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر[1] عن غير رأى كان منى فيه ولا طلب له ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم .

فصاح الناس صيحة واحدة :

ـ قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك تول أمرنا باليمن والبركة .

لم يأت عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة ليجمع أو يفخر أو يتحكم ، بل جاء ليعدل ويصلح ويغنى الناس .

فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضى به الناس جميعاً حمد الله وأثنى عليه وصلى على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم وقال :

أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد له قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، إن

(١) الأمر : الخلافة .

من لا يذكر من آبائه[1] أباً حياً لمعرق فى الموت .

إن هذه الأمـة لم تختلف فى ربهـا عز وجل ولا فى نبيـهـا صلى الله عليـه وسلم ولا فى كـتابهـا وإنما اختلفـوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أعطى أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقـاً ، إنى لست بخازن ولكنى إنما أضع حيث أمرت .

أيهـا الناس إنه قـد كـان قبلى ولاة لا يجتـرون مـودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، من أطاع الله وجـبت طاعـتـه ومن عـصى الله فـلا طاعـة له ، أطيعـونى مـا أطعت الله فيكم ، فـإن عـصيت الله فـلا طاعة لى عليكم أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

ودخل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ليستريح قليلاً فأتاه ابنه عبد الملك فتساءل :

ـ يا أمير المومنين ما تريد أن تصنع ؟

قال حفيد عمر بن الخطاب :

ـ أى بنى أقيل[2] .

فقال عبد الملك بن عمر :

ـ تقيل ولا ترد المظالم ؟

قال الخليفة الخامس :

ـ أى بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمـان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم .

---

(١) آبائه : فيما بينه وبين آدم عليه السلام .

(١) أقيل : أنام وقت القيلولة .

فقال الابن :

ـ يا أمير المؤمنين من لك أن تعيش إلى الظهر ؟

فقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك :

ـ ادن[1] منى أى بنى .

فاقترب الابن من الأب فالتزمه وقبل بين عينيه وقال :

ـ الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى .

وخرج عمر بن عبد العزيز ولم يقل ...

وأمر خامس الخلفاء الراشدين مناديه أن ينادى :

ـ ألا من كانت له مظلمة فليرفعها .

إن قلب عمر بن عبد العزيز الورع الذكى الكبير كان ينبض مع كل إنسان فى أمته ..

مع كل فقير ومريض ومقهور ..

مع كل يتيم وشيخ ومظلوم وأرملة ..

وذات يوم قال أبو حفص لسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب :

ـ اكتب لى سيرة عمر حتى أعمل بها .

فقال سالم بن عبد الله :

ـ إنك لا تستطيع ذلك .

فتساءل عمر بن عبد العزيز :

ـ ولم ؟

قال سالم بن عبد الله :

ـ إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر لأنه يجد على

---

(١) ادن : اقترب .

الخير أعواناً ، وأنت لا تجد من يعينك على الخير .

وقال رجل لخامس الخلفاء الراشدين :

ـ جزاك الله عن الإسلام خيراً

فقال أبو حفص :

ـ بل جزى الله الإسلام عنى خيراً ما أصابنى

وكان عمر بن عبد العزيز يأكل الغليظ ولا يبالى بشىء من النعيم ..

وأمر عمر بن عبد العزيز جاريته أن تروحه حتى ينام فنامت هى فأخذ الخليفة التقى الورع المروحة من يدها وجعل يروحها ويقول :

ـأصابك من الحر ما أصابنى

وخرج عمر بن عبد العزيز مع ميمون بن مهران إلى القبور فقال لميمون :

ـ يا أبا أيوب هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعشيتهم ، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات ؟ واستحكم فيهم البلاء ؟

ثم بكى عمر بن عبد العزيز حتى غشى عليه ثم أفاق وقال :

ـ انطلقوا بنا فوالله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد آمن من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله .

وخرج عمر بن عبد العزيز فى جنازة فلما دفنت قال لأصحابه :

ـ قفوا حتى آتى قبور الأحبة .

فآتاهم فجعل يبكى ويدعو .

إذ هتف به التراب فقال :

ـ يا عمر ألا تسألنى ما فعلت فى الأحبة ؟

تساءل عمر بن عبد العزيز :

ـ وما فعلت فيهم ؟

قال التراب :

ـ مزقت الأكفان وأكلت اللحوم ، وشدخت المقلتين ، وأكلت الحدقتين ، ونزعت الكفين من الساعدين والساقين من الفخذين والفخذين من الورك ، والورك من الصلب .

ولما أراد عمر بن عبد العزيز أن يذهب قال له :

ـ يا عمر ألا أدلك على أكفان لا تبلى ؟

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ وما هى ؟

قال التراب :

ـ تقوى الله والعمل الصالح .

وقال عمر بن عبد العزيز لأحد جلسائه :

ـ لقد أرقت الليلة مفكراً .

قال الرجل :

ـ وفيم يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة العادل :

ـ فى القبر وساكنه إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث فى قبره وما صار إليه لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام وتخترق فيه الديدان ويجرى فيه الصديد مع تغيير الريح وبلى الأكفانْ بعد حسن الهيئة وطيب

الريح ونقاء الثوب .

ثم شهق عمر بن عبد العزيز شهقة فخر مغشياً عليه .

وانتبه عمر بن عبد العزيز ذات ليلة وهو يقول :

ـ لقد رأيت الليلة رؤيا عجيبة .

فقالت امرأته فاطمة بنت عبد الملك :

ـ أخبرنى بها .

فقال أبو حفص :

ـ حتى نصبح .

فلما صلى عمر بن عبد العزيز بالمسلمين دخل بيته فقالت له امرأته :

ـ ماذا رأيت ؟

قال الخليفة العادل :

ـ رأيت كأنى دفعت إلى أرض خضراء كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر كأنه الفضة ، فخرج منه خارج فنادى : أين محمد بن عبد الله ؟ أين رسول الله ؟ إذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنادى : أين أبو بكر الصديق ؟ فأقبل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين عمر بن الخطاب ؟ فأقبل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل فدخل ثم خرج آخر فنادى : أين على ابن أبى طالب ؟ فأقبل فدخل . ثم خرج آخر فنادى : أين عمر ابن عبد العزيز ؟ فقمت فدخلت فجلست إلى جانب أبى عمر بن الخطاب وهو على يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عن يمينه وبينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل

فقلت لأبى :

ـ من هذا ؟

قال عمر بن الخطاب :

ـ هذا عيسى بن مريم .

ثم سمعت هاتفاً يهتف بينى وبينه نور لا أراه وهو يقول :

ـ يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه واثبت على ما أنت عليه .

ثم كأنه أذن لى فى الخروج فخرجت فالتفت فإذا عثمان ابن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول :

ـ الحمد لله الذى نصرنى ربى .

وإذا على بن أبى طالب فى إثره وهو يقول :

ـ الحمد لله الذى غفر لى ربى .

عمر بن عبد العزيز يرد المظالم

بدأ حفيد الفاروق بنفسه فقال :

ـ إنه لا ينبغى إلا أن أبدأ أولاً من نفسى .

فنظر الخليفة الخامس إلى ما فى يديه من أرض أو متاع فخرج منه .. حتى نظر إلى فص خاتم كان فى يديه فقال :

ـ هذا أعطانيه الوليد من غير حقه مما جاء من أرض المغرب. ورده ..

وخرج الخليفة العادل مما كان فى يده من القطائع ، وكان فى يده قطائع باليمامة والمكيدس وجبل الورس باليمن وفدك .. فخرج من ذلك كله ورده إلى المسلمين .

وترك عمر بن عبد العزيز عينا بالسويداء وكان استنبطها

بعطائه فكانت تأتيه غلتها كل سنة مائة وخمسون ديناراً أو أقل أو أكثر .

لم يرد الخليفة العادل ما لديه سراً .. بل أمر فنودى فى الناس :

ـ الصلاة جامعة .

وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها وما كان ينبغى لهم أن يعطوناها ، وأن ذلك قد صار إلى ليس على فيه دون الله محاسب ، ألا وأنى قد رددتها بنفسى وأهل بيتى .

ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكان عندها جوهر أمر لهابه أبوها لم ير مثله فقال لها عمر بن عبد العزيز :

ـ اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال وإما أن تأذنى لى فى فراقك فإنى أكره أن أكون أنا وأنت فى بيت واحد .

قالت فاطمة بنت عبد الملك :

ـ لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى .

فأمر الخليفة العادل بجوهر امرأته فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ..

وجعل عمر بن عبد العزيز لا يدع شيئاً مما كان فى يد سليمان وفى يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح وكان نشأ فى

البـادية ، فكأنه أعـرابى فـأتى ناس من المسلمين إلى الخليـفـة الخامس يخاصمـون روحا فى حوانيت بحمص ، وكانت لهم أقطعه إياها أبوه الوليد ، فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ أردد عليهم حوانيتهم .

فقال روح بن الوليد :

ـ إنها لى بسجل الوليد .

فقال حفيد عمر بن الخطاب :

ـ ما يغنى عنك سجل الوليد الحوانيت[1] حوانيتهم قد قامت لهم البينة[2] عليها خل حوانيتهم .

فقام روح والحمصى منصرفين .

وتوعد روح بن الوليد الحمصى فرجع إلى الخليفة العادل فقال عمر بن عبد العزيز لكعب بن حامد وهو على حرسه :

ـ أخرج إلى روح يا كعب فإن سلم إليه حوانيته فذاك وإلا فأتنى برأسه .

فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذى أمر به الخليفة فركبه الرعب وخلع فؤاده[1] لما رأى كعب بن حامد مقبلا ومعه سيفه فقال له :

ـ قم فخل له حوانيته .

فقال روح بن الوليد فى استسلام :

ـ نعم نعم .

---

(١) الحوانيت : الدكاكين .

(٢) البينة : الدليل القاطع .

(٣) فؤاده : قلبه

وخلى للحمصى حوانيته ..

وحمل الخليفة العادل بنى مروان بن الحكم على النزول عما كان فى أيديهم من الأموال بغير استحقاق وردها إلى أصحابها وذويها ..

وجاء رجل ذمى[1] من أهل حمص فقال :

ـ يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله .

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ وما ذاك ؟

قال الذمى :

ـ العباس بن الوليد بن عبد الملك غصبنى أرضى .

وكان العباس بن الوليد حاضراً .. فسأله عمر بن عبد العزيز:

ـ يا عباس ما تقول ؟

قال العباس بن الوليد :

ـ أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لى بها سجلا .

فتساءل حفيد الفاروق .

ـ ما تقول يا ذمى ؟

قال الذمى :

ـ يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل .

فقال الخليفة العادل :

(١) ذمى : من أهل الكتاب .

ـ نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك يا عباس أردد عليه ضيعته .

فرد العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى الذمى ضيعته .

ولما منع الخليفة العادل قرابته ما كان يجرى عليهم من أرزاق خاصة وأخذ منهم القطائع التى كانت فى أيديهم شكوه إلى عمته أم عمر فدخلت عليه فقالت :

ـ إن قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم خبز غيرك .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم .

قالت أم عمر :

ـ إنى رأيتهم يتكلمون وأنى أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيبا .

قال الخليفة العادل :

ـ كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره .

فلما رجعت إلى بنى أمية قالت لهم :

ـ ذوقوا مغبة أمركم فى تزويجكم آل عمر بن الخطاب .

وضج بنو أمية من فعل عمر بن عبد العزيز فاجتمعوا إلى شيخهم وكبيرهم عمر بن الوليد بن عبد الملك ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز :

إنك أزريت[1] على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم بغضا [2] لهم

وشنآنا لمن بعدهم[٣] من أولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا[٤] وعدوانا، يا ابن عبد العزيز اتق الله وراقبه إن شططت لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور ، فوالذى خص محمداً صلى الله عليه وسلم بما خصه به لقد ازددت من الله بعدا فى ولايتك هذه ، إذ زعمت أنها عليك بلاء فاقصر بعض ميلك واعلم أنك بعين جبار وفى قبضته ، ولن تترك على هذا .

فلما قرأ عمر بن عبد العزيز كتاب عمر بن الوليد كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم : من عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد .

السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

أما بعد :

فإنه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه :

أما أول شأنك يا ابن الوليد فإن أمك بنانة أمة السكون كانت تطوف فى أسواق حمص وتدخل حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فىء[٥] المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس الحمل وبئس المحمول ، ثم نشأت فكنت

(١) أزريت : زرى عليه فعله عابه .
(٢) بغضا : كرها .
(٣) شنآن : الشانئ : المبغض .
(٤) جوراً : ظلماً .
(٥) فىء المسلمين : الغنائم التى استولى عليها المسلمون فى الحرب .

جباراً عنيداً .

تزعم أنى من الظالمين لأنى حرمتك وأهل بيتك فىء الله عز وجل الذى هو حق القربة والمساكين والأرامل وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين تتحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصمائكما يوم القيامة القيامة ، وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابياً جافيا على مصر وأذن له فى المعازف واللهو والشراب[1] .

وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما فى الخمس .

فرويداً يا ابن بنانة فلو التقت حلقتا البطان ورد الفىء لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتك على المحفة البيضاء فطالما تركتم الحق وأخذتم فى بنيات الطريق ، ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته : بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكل فيك حقا .

والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين .

---

(١) الشراب : الخمر .

ولما بلغت الخوارج سيرة عمر بن عبد العزيز وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا :

ـ ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل .

وأقبلت وفود المهنئين من مشارق الأرض ومغاربها ..

وتقدم وفد الحجازيين للكلام غلام صغير لم تبلغ سنه إحدى عشرة سنة .

فقال حفيد عمر بن الخطاب :

ـ ارجع أنت وليقدم من هو أسن منك .

فقال الغلام :

ـ أيد الله أمير المؤمنين المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان فى الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا .

فتعجب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من كلام الغلام وأنشد :

تعلم فليس المرء يولد عالما وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

* * *

قوة عمر بن عبد العزيز في الجدل

كانت للثقافة الدينية والأدبية التى تلقاها عمر بن عبد العزيز فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر بعيد المدى فى قوة حجته وشدة عارضته ، وقد ظهر ذلك جلياً فى حجاجه وجدله مع الخوارج ، فقد كانوا قوماً لدا [1] يلجون فى الخصومة ولا يفيئون إلى الحق ولكن عمر بن عبد العزيز أفحمهم ودحض حجتهم[2] وكان يصاولهم بحذق ومهارة ويضيق عليهم الخناق حتى اضطرهم إلى الإذعان[3] والتسليم فقد خرج سنة مائة من الهجرة بالجزيرة شوذب الخارجى واسمه بسطام من بنى يشكر فكتب إليه الخليفة العادل :

بلغنى أنك خرجت[4] غضبا لله ولرسوله ولست أولى بذلك منى فهلم إلى أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا .

فكتب بسطام إلى عمر بن عبد العزيز :

قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك .

وأرسل بسطام إلى عمر بن عبد العزيز مولى لبنى شيبان حبشيا اسمه عاصم ورجلا من بنى يشكر ..

وقدم الرجلان على معجزة الإسلام بخناصرة فأخبر بمكانهما فقال عمر بن عبد العزيز :

---

(١) لدا : اللدد : شديد الخصومة .
(٢) حجتهم : مزاعمهم وافتراءاتهم .
(٣) الإذعان : الخضوع .
(٤) خرجت : صرت من الخوارج .

ـ فتشوهما لا يكن معهما حديد[1] وأدخلوهما .

فلما دخلا قالا :

ـ السلام عليك .

ثم جلسا .. فقال لهم أبو حفص :

ـ أخبراني ما الذى أخرجكم مخرجكم هذا ؟ وما نقمتم علينا ؟

فقال عاصم الحبشى :

ـ ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر[2] أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم ؟

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إلى رجل كان قبلى فقمت ولم ينكر على أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس ، فاتركونى ذلك الرجل ، فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم .

فقال عاصم واليشكرى :

ـ بيننا وبينك أمر إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك .

فتساءل الخليفة العادل :

ـ وما هو :

---

(١) حديد : سيف أو خنجر .

(١) هذا الأمر : الخلافة .

قالا :

- رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم [1] فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فالعنهم وتبرأ منهم فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق .

فتكلم عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[2] وقال الله عز وجل ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾[3].

وقد سميتم أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرونى : متى لعنت فرعون ؟ ما أذكر متى لعنته أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعنى أن لا ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون ؟ أم هم كفار بظلمهم ؟ لا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقربه وشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد .

قال عاصم الحبشى :

(١) سبيلهم : طريقهم .
(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٦ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٠ .

ـ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عبده .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ فليس أحد منهم يقول : لا أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء .

قال عاصم الحبشى :

ـ فابرأ ممن خالف عملك ورد أحكامهم .

قال خامس الخلفاء الراشدين :

ـ أخبرانى عن أبى بكر وعمر أليسا من أسلافكما وممن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة ؟

قال الخارجيان :

ـ اللهم نعم .

قال عمر بن عبد العزيز :

فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال وسبى الذرارى ؟

قال الخارجيان :

ـ نعم .

قال الخليفة الورع الذكى :

ـ فهل علمتما أن عمر قام بعد أبى بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟

قال الخارجيان :

ـ نعم .

قال عمر بن عبد العزيز:

ـ فهل برئ عمر من أبى بكر ؟ أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟

قال عاصم واليشكرى :

ـ لا .

فقال أبو حفص :

ـ فأخبرانى عن أهل النهروان ؟ أليسوا من صالحى أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة ؟

قالا :

ـ بلى .

قال الخليفة الخامس :

ـ فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم ، فلم يسفكوا دما ، ولم يخيفوا آمنا ، ولم يأخذوا مالا ؟

قال الخارجيان :

ـ نعم .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن فديك استعرضوا الناس يقتلونهم وألقوا عبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبحوا حيا من أحياء العرب فاستعرضوهم فقتلوا

الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان فى القدور قدور الأقط [1] وهى تفور ؟

قال عاصم واليشكرى :

ـ فقد كان ذلك .

فتساءل الخليفة الذكى الصالح :

ـ فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ؟ وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟

قالا :

ـ لا .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ أرأيتم الدين واحد أم اثنين ؟

قال الخارجيان :

ـ بل واحد .

قال أبو حفص :

ـ فهل يسعكم فيه شىء يعجز عنى ؟

قالا :

ـ لا .

فعاد عمر بن عبد العزيز يتساءل :

ـ فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة وتولى بعضهم بعضا ، وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء فى الدماء والفروج والأموال ، ولا

(١) الأقط : السمن .

يسعنى فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتى والتبرؤ منهم ؟ ويحكم أنكم قوم جهال أردتم أمرا فأخطأتموه فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمن من خاف عنده ويخاف عندكم من آمن عنده .

قال الخارجيان :

ـ ما نحن كذلك .

قال أبو حفص :

ـ بل سوف تقرون بذلك الآن .. هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم إلى خلع الأوثان وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن فعل ذلك حقن دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه[1] من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه ؟

قال اليشكرى :

ـ أرأيت رجلا ولى قومه وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذى يلزمه الله عز وجل ؟ أو تراه قد أسلم ؟

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ لا .

فتساءل اليشكرى :

ـ أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا

---

(١) أباه : رفضه .

يقوم فيه بالحق ؟

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ إنما ولاه غيرى والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدى .

فعاد اليشكرى يتساءل :

ـ أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا ؟

فبكى عمر بن عبد العزيز وقال :

ـ أنظرانى[1] ثلاثا .

فخرج عاصم واليشكرى من عند الخليفة العادل .

ثم عادا إليه بعد ثلاثة أيام فقال عاصم الحبشى :

ـ أشهد أنك على حق .

قال عمر بن عبد العزيز لليشكرى :

ـ ما تقول أنت ؟

قال اليشكرى :

ـ ما أحسن ما وصفت ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم .

لقد منح الخليفة العادل الخوارج الحق فى منحهم الفرصة للتعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ما دام نشاطهم لا يتحول إلى سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقناعهم .

وكانت حجة عمر بن عبد العزيز قوية متينة عندما ناظر

(١) انظرانى : أمهلانى .

وجادل طائفة القدرية[1] فقد ناظر غيلان الدمشقى فى القدر .
فلما بلغه أن غيلان وفلانا نطقا فى القدر بعث إليهما فجاءا
فقال عمر بن عبد العزيز :
ـ ما الأمر الذى تنطقان به ؟
قالا :
ـ هو ما قال الله يا أمير المؤمنين .
فتساءل خامس الخلفاء الراشدين .
ـ وما قال الله ؟
قال غيلان وفلان :
ـ قال : **﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسَانِ حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يكُن شيْئاً مذْكُوراً ﴾**[2] .
وقال تعالى **﴿ إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وإمَّا كفُورا ﴾**[3].
ثم سكتا ..
فقال عمر بن عبد العزيز :
ـ اقرأ .
فقرأ غيلان وفلان سورة الإنسان حتى بلغا قوله تبارك وتعالى: **﴿ إنَّ هَذه تَذْكِرَةٌ فمن شَاءَ اتَّخذَ إلى ربِّه سَبِيلا * وَما تَشاءُونَ إلا أن يَشَاءَ اللهُ ﴾**[4] إلى آخر السورة .
فتساءل الخليفة الذكى الورع :

(١) القدرية : هم الذين ينكرون قدر الله تعالى ويغالون فى إثبات القدرة للإنسان وأنه لا يحتاج إلى معونة إلهية فى أعماله .
(٢) سورة الإنسان الآية : ١ . (٣) سورة الإنسان الآية : ٣ .
(٤) سورة الإنسان : الآيتان : ٢٩ ـ ٣٠ .

ـ كيف تريان ؟ تأخذان الفروع وتدعان الأصول ؟

وبلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان وفلان قد أسرفا فأرسل إليهما وهو مغضب فقام عمر ، وكان ابن مهاجر خلفه قائماً ، حتى دخلا عليه وهو مستقبلهما فقال عمر لهما :

ـ ألم يكن في سابق علم الله حين أمر إبليس بالسجود أن لا يسجد ؟

فأومأ ابن مهاجر لغيلان وفلان برأسه أن قولا :

ـ نعم وإلا فهو الذبح .

فقال غيلان وفلان :

ـ نعـم .

فتساءل الخليفة الورع :

ـ أولم يكن في سـابق علم الله حين نهى آدم وحـواء عن الشجرة أن يأكلا منها فألهمهما أن يأكلا منها ؟

فأومأ ابن مهاجر لهما برأسه فقالا :

ـ نعـم .

فأمر عمر بن عبد العزيز باخراجهما وأمر بكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان وأمسكا عن الكلام وتاب غيلان على يد أبي حفص وقال :

ـ يا أميـر المؤمنين لقـد جئـتك ضـالا فـهـديتني وأعـمى فبصرتني وجاهلا فعلمتني والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبداً .

نفس لوامة تواقة

يشب الإنسان وتشب معه رغباته وأهواؤه .. وعمر بن عبد العزيز رجل ككل البشر له نفس تتوق وله رغبات تتشوق .. ولكن هذه الرغبات قد اتجهت اتجاهاً يشرف صاحبها ، لقد تدرجت فى مدارج السمو والعلو درجة بعد درجة حتى انتهت إلى القمة وهى الرغبة فى الآخرة والتعلق بما يحبه الله ويرضاه .. وكان الخليفة العادل يقول :

ـ كانت لى نفس تواقة فكنت لا أنال شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أعظم منه ، فلما بلغت نفسى الغاية تاقت إلى الآخرة .

لقد تربى عمر بن عبد العزيز ربيب قصور نعمة .. نشأ فوجد السيادة والقيادة فى أسرته وأهله يرتدى أفخر الثياب ويضمخها(١) بأغلى العطور ويأكل أطيب الطعام ويركب الصافنات الجياد (٢) ولكن ذلك لم يجعله متكلاً على نسبه وحسبه ، بل أقبل على نفسه يؤدبها ويهذبها وعلى عقله ينوره ويزوده بالعلم والمعرفة ، فقد كانت نفسه تتطلع منذ الصغر أن يكون كخاله عبد الله بن عمر بن الخطاب عالم هذه الأمة فى الفقه والعلم .

رأى عمر بن عبد العزيز خادمه مزاحم يسحب برذونه فسأله:

ـ كيف حال الناس ؟

فأجابه مزاحم :

ـ كل الناس فى راحة إلا أنت وأنا وهذا البرذون .

لقد انعكس استغراقه فى مسئوليات الخلافة وأمر الرعية على

(١) ضمخ : ضمخ بالطيب تلطخ بالعطور .

(٢) الصافنات الجياد : الجياد جمع جواد وهى الخيل الأصيلة الكريمة .

نفسه وعلى أهله وعلى كل من حوله .

ودخل على خامس الخلفاء الراشدين محمد بن كعب القرظى فهاله ما رأى من عمر بن عبد العزيز الذى نحل جسمه وغفا شعره وتغير لونه .. أين شعره الذى كان يرخيه ؟ أين ازاره الذى كان يلبسه ويتبختر فى مشيته ؟ كان يذيل ثوبه ويسرف فى عطره ويدخل فى طيبه حمل القرنفل والعنبر على لحيته كالملح؟ منذ أن أفضت إليه الخلافة ترك كل ذلك وتبذل ؟ كان حسن الجسم ممتلئ البضعة .. احترق واسود ولصق جلده بعظمه حتى ليس بين الجلد والعظم لحم ؟

وجعل محمد بن كعب ينظر إليه لا يصرف بصره عنه فقال له :

ـ يا ابن كعب ما لك تنظر إلىّ نظراً ما كنت تنظره إلىّ من قبل ؟

فقال محمد بن كعب القرظى :

ـ لعجبى يا أمير المؤمنين .

فتساءل خامس الخلفاء الراشدين :

ـ ومم عجبك ؟

قال محمد بن كعب :

ـ مما نحل من جسمك ونفا من شعرك وتغير من لونك .. أين ذلك اللون النضير والشعر الحسن والبدن الريان ؟

فقال عمر بن عبد العزيز ؟

ـ إنك إذا لأشد عجباً من أمرى وإنكار إلىّ ، لو رأيتنى بعد ثلاث فى قبرى وقد وقعت عيناى على وجنتى وسكن الدود منخرى وفمى ؟

ثم راح يبكى ويبكى .

لقد تغيرت الصورة وذوى الجسد الريان الذى غذاه النعيم تحت وطأة النفس اللوامة ومطارق المسئولية .

وجرى عمر بن عبد العزيز أهل بيته إلى طريق الزهد .

قرقرت أمعاء زوجته فاطمة بنت عبد الملك من الجوع يوماً فقال لها الخليفة الورع مداعباً :

ـ يا فاطمة لنحن ليالى دابق أنعم منا اليوم ؟

كان يشير بهذا إلى حياتهم المنعمة قبل الخلافة فى مرج دابق .

قالت فاطمة بنت عبد الملك :

ـ والله ما كنت على ذلك يومئذ أقدر منك اليوم ـ تعنى أنه الآن وهو خليفة وحاكم للدولة أقدر على التزود من النعيم منه قبل ذلك ـ

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ يا فاطمة إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم .

وبعث عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحم ليشترى له كساء بثمانية دراهم ..

فجاء مزاحم بالكساء فأعجب عمر بن عبد العزيز ووضع يده عليه وقال :

ما ألينه .

فضحك مزاحم .. فتساءل الخليفة العادل :

ـ إنى لأحسبك أحمق أتضحك من غير شيء ؟

قال مزاحم :

ـ ماذا بى ولكنك أمرتنى قبل ولايتك أن أشترى لك مطرف خز[1] فاشتريت لك مطرفا بثمانمائة درهم فوضعت يدك عليه وقلت : ما أخشنه وأنت اليوم تستلين كساء بثمانية دراهم فعجبت من ذلك وأضحكتنى .

لقد زهد عمر بن عبد العزيز فى الدنيا ورفض ما كان فيها من نعيم وترف وترك أن يخدم وترك ألوان الطعام فكان إذا صنع له طعام هيئ على شيء وغطى حتى إذا دخل نبذه[2] وأكل الخشن من العيش .

وجلس يوما مع رجال من الزهاد فتذاكروا الزهاد .

فقال قائلون منهم :

ـ فلان .

وقال آخرون :

ـ بل فلان .

فقال الخليفة الخامس :

ـ أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب .

(١) خز : ثوب من الصوف .
(٢) نبذه : تركه .

خليفة يتطلب الموعظة

كان معجزة الإسلام يؤمن بأن العظة واجب يحسن أداؤه وصلة يجمل تقديمها وعلى الرغم من أن عمر بن عبد العزيز إمام وعالم ورشيد فقد كان لا يلقى أحداً من الموعظة والتوجيه إلا طلب إليه أن يعظه بما استطاع .

قال لمن حوله :

ـ انظروا رجلين من أفضل من تجدون .

فجئ برجلين فكان إذا جلس مجلس الإمارة فألقى لهما وسادة قبالته فقال لهما :

ـ إنه مجلس شر وفتنة فلا يكون لكما عمل إلا النظر إليّ فإذا رأيتما منى شيئاً لا يوافق الحق فخوفانى وذكرانى بالله عز وجل .

وكتب الخليفة العادل إلى الحسن البصرى يطلب منه أن يكتب إليه بصفة الإمام(١) العادل .

فكتب الحسن البصرى إليه يقول :

ـ اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد(٢) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل مظلوم ، ونصفة(٣) كل مظلوم ومفزع كل ملهوف .

---

(١) الإمام : الحاكم .
(٢) قصد : هداية .
(٣) نصفة : أنصاف .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها [1] عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقر[2] .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته ..

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم ..

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله .

---

(١) يذودها : يدفعها بعيداً .

(١) القر : البرد .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وانصارك عليه فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ..

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه يطول فيه سؤالك ويفارقك أحباؤك ويسلمونك فى قعره فريداً وحيداً فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ..

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور .. فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ..

لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا[1] ولا ذمة فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين ينعمون بما فيه بؤسك ويأكلون الطيبات فى دنياهم باذهاب طيباتك فى آخرتك ..

لا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداوأنت مأسور فى حبائل الموت وموقوف بين يدى الله فى مجمع من

(١) إلا : عهداً .

الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت[1] الوجوه للحى القيوم ..

إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولوا النهى[2] من قبلى فلم آلك[3] شفقة ونصحا فأنزل كتابى إليك كالمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة .. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

لقد كان عمر بن عبد العزيز حريصاً على طلب الموعظة كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .. وليس معنى ذلك أنه كان لا يحسن الموعظة ، بل العجيب أن الذى يحرص على طلب الموعظة من غيره هذا الحرص كان يعظ غيره ، فيجيد الموعظة ويحسنها حتى يكون تأثيرها عميقاً بليغاً .

قال عمر بن عبد العزيز لرجل يوماً :

ـ عظنى .

فقال الرجل :

ـ أوصيك بتقوى الله فإنها ذخيرة الفائزين ، وحرز المؤمنين، وإياك والدنيا تفتنك فإنها قد فعلت ذلك بمن كان قبلك إنها تغر المطمئن إليها وتفجع الواثق بها وتسلم الحريص عليها ولا تبقى لمن استبقاها ولا تدفع التلف عمن حولها لها مناظر بهجة منها أمامك لم يسبقك وما أخرت منها خلفك لم يحلقك .

* * *

(١) عنت : خضعت .

(٢) أولو النهى : أصحاب العقول .

(٣) آلك : أقصر .

اختياره ممن يريد توليتهم

سار عمر بن عبد العزيز على طريق جده عمر بن الخطاب حين كان يريد أن يولى رجلا فكان يقول لأصحابه :

ـ دلونى على رجل أكل إليه أمراً يهمنى .

وكان يولى الرجل الذى لا يفسح الناس له الطريق ولا يتخطون الرقاب ، وأمراء فى أخلاقهم وتواضعهم ، أمراء يمشون على الأرض هونا ، ويعيشون قانعين ويشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح .

ووفد على خامس الخلفاء الراشدين بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى فهنأه فقال :

ـ من كانت الخلافة يا أمير المؤمنين شرفته فقد شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها وأنت والله كما قال مالك بن أسماء:

وتزيدين طيب الطبيب طيبا   إن تمسيه أين مثلك أينا
وإذا الدر زان حسن وجوه   كان للدر حسن وجهك زينا

فجزاه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خيراً .

ولزم بلال بن أبى بردة المسجد يصلى ويقرأ ليله ونهاره ..

وهم الخليفة الخامس أن يولى بلال بن أبى بردة العراق ، وقال للعلاء بن المغيرة وكان خصيصاً بعمله :

ـ إن يكن سر هذا كعلانيته فهو رجل العراق غير مدافع عن فضل .

قال العلاء بن المغيرة :

ـ أنا آتيك يا أمير المؤمنين بخبره .

فـأتى العـلاء بلال بن أبى بردة وهو يصلى بين المغـرب والعشاء فقال له :

ـ اشفع[1] صلاتك فإن لى حاجة .

فلما فرغ بلال من صلاته قال له العلاء بن المغيرة :

ـ تعرف منزلتى ومقربتى من أمير المؤمنين فإن أشرت عليه أن يوليك العراق ما تجعل لى ؟

قال بلال بن أبى بردة :

ـ عمالتى سنة .

فقال العلاء بن المغيرة :

ـ تعنى عشرين ومائة ألف درهم ؟

قال بلال بن أبى بردة :

ـ نعم .

فقال العلاء بن المغيرة :

ـ فاكتب لى على ذلك خطا[2] .

فقام بلال بن أبى بردة من وقته وكتب له خطا بذلك ..

وحمل العلاء الخط إلى عمر بن عبد العزيز .. فلما قرأه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وكان والياً على الكوفة :

---

(١) اشفع : زد فى صلاتك .

(٢) الخط : مكتوب مثل الايصال أو الشيك .

أمـا بعـد فـإن بلالاً غـرنا بالله فكدنا نغـتـر به ثم سـبكناه[1] فوجدناه خبثا كله .

ونفى أمير المؤمنين عـمر بن عبـد العزيز بلال بن أبى بردة وأخرجه من العراق وقال :

ـ يا أهل العراق إن صاحبكم أعطى مقولاً ولم يعط معقولا ، وزادت بلاغته ونقصت زهادته .

إن عمر بن عبد العزيز كان أول خليفة أموى لا يجد حاجة فى فـرع أبويه ، فـمن كـان له حق يأتيـه وفى داره ، ومـا ليس له حق فـدون بلوغـه قطع الرقـاب .. فـقـد صـار عنده الحق وحـده الفيصل والحكم .

* * *

الدولة قدوة

إن الحاكم الذى يجاوز المـألوف المعتـاد إلى المعجـزات هو الذى يحمى القـانون وينفذه بالقدوة الحسنة ، ولقـد كـان حفـيد عمر بن الخطاب واحداً من هؤلاء الحكام .

كانت الدولة الأموية قبل عهد خامس الخلفاء الراشدين تحيا خـارج وظيـفـتـهـا وخـارج حقـيـقـتـهـا إذ تركـت مـواقـع عـملـهـا واستسلمت لمخالب الغواية والهوى .

ولكن الدولة فى عـهـد عمر بن عبـد العزيز تتـمـثل فى كل الأجهزة العاملة .

(١) سبكناه : سبك الفضة وغيرها أى أذابها وجعلها سبيكة .

كان عمر بن عبد العزيز يقول :

ـ إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها .

فالوالى ركن .

والقاضى ركن .

وصاحب بيت المـال ركن .

والركن الرابع أنا .

لقد جعل الخليفة المتواضع نفسه الركن الأخير .

ولكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس لابد أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هذه الأركان الأربعة .

وأعطى الخليفة العادل الموظفين سلطات اختصاصهم ، ولم يركز السلطة فى يد واحدة .. فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى واليه يقول :

إنه يخيل إلى أنى لو كتبت لك أن تعطى رجلاً شاة لتكتب إلى أذكرا أم أنثى ؟ ولو كتبت إليك بأحدها لكتب : أضائنة[1] أم معزى ؟ فإذا كتبت إليك فنفذ ولا ترد على والسلام .

لقد قضى الخليفة الخامس على الروتين منذ ما يقرب من ألف وثلاثمائة سنة عندما أخذ بهذا النظام .

فقد أدرك الخليفة العادل تبعة الدولة نحو الفرد لأنها المجموع القوى المقتدر الذى يجب عليه أن يحمى مصالح أفراده الذين يكونون كتلته .

---

(١) أضائنة : من الضأن .

جاء عمر بن عبد العزيز رجل فقال له :

ـ يا أمير المؤمنين إنى زرعت زرعاً فمر به جيش من أهل الشام فأفسده .

فلم ينتظر عمر بن عبد العزيز حتى يبعث طائفة من رجاله لكى يتحققوا من صدق الرجل .. بل عوضه على الفور عشرة آلاف درهم .

فكان يرى خامس الخلفاء الراشدين أن الدولة مسئولة عن إصلاح الفساد الذى لا يستطيع الفرد أن يدفعه ، وكتب إلى خزنة بيت الأموال بأن يأخذوا من الأفراد النقود الكاسدة التى لا يقبلها الناس، ولا حيلة لهم فى أمرها .. فقال عمر بن عبد العزيز لهؤلاء الخزنة :

ـ إذا أتاكم الضعيف بالدينار لا ينفق عنده فأبدلوه من بيت المال .

وخرج عمر بن عبد العزيز يوماً من منزله على بغلة له شهباء وعليه قميص له وملاءة ممشقة .. فجاء رجل على راحلة له فأناخها وسأل عن عمر بن عبد العزيز :

ـ أين أمير المؤمنين ؟

فقالوا له :

قد خرج وهو راجع الآن .

فلما رجع الخليفة الخامس قام إليه الرجل فشكا إليه عدى ابن أرطأة فى أرض له ، فقال حفيد عمر بن الخطاب :

ـ أما والله ما غرنا منه إلا بعمامته السوداء . أما إنى قد كتبت إليه[1] : إنه من أتاك ببينة على حق هو له فسلمه إليه ، ثم قد عناك إلى[2] .

وأمر الخليفة العادل برد الأرض إلى الرجل ثم سأله :

ـ كم أنفقت فى مجيئك إلىّ ؟

فقال الرجل :

ـ يا أمير المؤمنين تسألنى عن نفقتى وأنت قد رددت على أرض وهى خير من مائة ألف ؟

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ إنما رددت عليك حقك فأخبرنى كم أنفقت ؟

فقال الرجل :

ـ ما أدرى .

فقال معجزة الإسلام :

ـ احرزه[3] .

ـ ستين درهما .

فأمر عمر بن عبد العزيز للرجل بستين درهما من بيت المال.

ولما انصرف الرجل راضياً مسروراً ناداه خامس الخلفاء الراشدين وقال له :

---

(١) كتبت إليه : ضل عن وصيتى .
(٢) عناك إلى : أتعبتك بالسفر إلى .
(٣) احرزه : قدره بالتقريب .

ـ خذ هذه خمسة دراهم من مالى فكل بها لحما حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله .

لقد كان معجزة الإسلام يرى أن الدولة مسئولة عن حماية أموال الأفراد وصيانة حقوقهم وعقارهم ..

وكان يرى أن يخلص الوالى فى هذه الرعاية وأن يتوسع فيها مع الضعفاء والعجزة ، حتى لا يستبد بهم أهل الطمع والجشع والخيانة والغدر .

جاءت امرأة مسكينة من أهل مصر وكان لها بيت صغير متواضع تهدم بعض جوانبه ، وكانت لها دجاجات تربيها لتستعين بها على حياتها ، ولكن اللصوص كانوا يعتدون عليها ويسرقون منها دجاجها بسبب تهدم بيتها ، فلما سمعت المرأة السوداء الفقيرة بعدالة معجزة الإسلام وحبه للخير وحرصه على مصالح رعيته والعباد .. كتبت إليه خطاباً شرحت فيه قصتها ورجته أن يصلح لها بيتها ، لأنها لا تستطيع ذلك وأن يحميها من اللصوص الذين يفجعونها فى دجاجها .

وبعثت المرأة الفقيرة بهذا الخطاب إلى خامس الخلفاء الراشدين مع بريد مصر الذاهب إلى الخليفة فى دمشق بالشام .

فكتب عمر إلى والى مصر يأمره أن يحصن لها بيتها .

وكان الخليفة العادل يرى أن الدولة مسئولة عن الانفاق على الذين خصصوا أنفسهم للدروس والبحث وطلب العلم ، فكتب إلى عماله :

أن أجروا على طلبة العلم الرزق وفرغوهم للطلب .

لقد جعل الخليفة العادل طلبة العلم متفرغين له لا يشغلهم عن العلم شاغل ولا يلفتهم عن الاستغراق فيه التفكير فى مطالب الحياة وأسباب القوت والطعام ، فالإنسان لا يجيد البحث والدرس إلا إذا كان فارغ البال هادئ النفس ، متفرغاً لما هو بسبيله من بحث وتحصيل .

وإذا كانت الدولة الحديثة والمتقدمة اليوم ترى من مفاخرها أنها تتكفل فى بعض الأحيان بنفقات المظلوم الضعيف فتعفيه مثلاً من نفقات القضايا وقد تعين له محامياً إذا عجز عن أجرِه .. فإن عمر بن عبد العزيز فعل أكثر من ذلك .. فقد كان يعلم ولاته وعماله ويعلم الناس جميعاً أن يدققوا فى تحقيق القضايا وأن يتأنوا فى الحكم ، وأن يحكموا ببينة ودليل ، وألا يحكموا بظنة أو شبهة ، فكان يقول :

ـ إذا جاءك الخصم وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يأتى الخصم الآخر فلعله قد فقئت عيناه معا .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول عن الأخذ بالشبهات فى الحدود :

ـ ادرءوا [1] الحدود ما استطعتم فى كل شبهة .. فإن الوالى إذا أخطأ فى العفو خير من أن يتعدى فى العقوبة .

كما عنى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بإصلاح السجون وإصلاح المسجونين .. فقد أمر بعدم تعذيب أحد من المسجونين

(١) ادرءوا : ادفعوا .

وألا يوثق[1] السجناء بوثاق يمنعهم من الصلاة وهم قيام ، وألا يبيت أحد منهم فى قيد إلا إذا كان مطلوباً فى دم[2] .

وأجرى الخليفة العادل على المسجونين الطعام والإدام ما يكفيهم ويصلح شأنهم ، وأخذ بالقول المشهور :

ـ المتهم برىء حتى تثبت تهمته .

لقد اتسع رفق عمر الإنسان حتى شمل الحيوان الأعجم ..

كان له غلام يشتغل على بغل له وكان الغلام يأتيه من أجر البغل كل يوم بدرهم ونصف درهم .. وذات يوم جاءه الغلام بثلاثة دراهم فسأله عمر بن عبد العزيز :

ـ ما بدا لك ؟

قال الغلام :

ـ لقد نفقت السوق[3] .

فقال الخليفة الإنسان :

ـ ولكنك أتعبت البغل .

وأمر الغلام أن يريح البغل ثلاثة أيام .

وحرم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن يشد الناس اللجم على الخيل شدا يؤلمها ، ونهى عن استعمال المنخسة فى نخس الدواب .

ونهى عن سباق الخيل فى غير حق لئلا يكون إرهاقاً لها ..

---

(١) ألا يوثق : ألا يقيد بحبل أو وثاق .

(٢) مطلوب فى دم : قتل إنسان ومطلوب للقصاص .

(٣) نفقت السوق : راجت .

ونهى عن جر الشاة إلى مذبحها ..

ونهى عن سن السكين لذبح الشاة فوق رأسها وهى تنظر إليها..

وكتب الخليفة العادل إلى والى مصر يقول :

إنه بلغنى أن بمصر نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فإذا أتاك كتابى هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل .

فلعل جماعة الرفق بالحيوان فى العصر الحديث لا تدعى أنها جاءت بجديد ..

* * *

إبطال لعن علي بن أبي طالب علي المنابر

ومن مآثر الخليفة العادل الصالح التقى أنه أمر بالكف عن لعن أبى الحسن كرم الله وجهه على المنابر ، فقد كانت سنة جرى عليها الأمويون منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان ، فقد كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة سنة إحدى وأربعين من الهجرة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبى تراب[1] وأهل بيته .

فقام الخطباء فى كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرءون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته .

(١) أبى تراب : وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً نائماً وعليه ترا ب فقال له : قم يا أبا تراب .

كما كتب معاوية بن أبى سفيان إلى عماله فى جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة[1] على بن أبى طالب وأهل بيته شهادة .

ثم كتب إليهم :

انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه .

ثم بعث معاوية بنسخة أخرى قال فيها :

من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم[2] فنكلوا به[3] واهدموا داره .

ولم يزل الأمر كذلك حتى مات ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على سنة خمسين من الهجرة فازداد البلاء والفتنة .

وحج معاوية بن أبى سفيان بعد موت سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على فدخل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن يلعن على بن أبى طالب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له :

ـ إن هاهنا سعد بن أبى وقاص ولا تراه يرضى بهذا فابعث إليه وخذ رأيه .

فأرسل معاوية بن أبى سفيان إلى سعد بن أبى وقاص وذكر له ذلك فقال سعد بن أبى وقاص :

(١) شيعة : أتباع .
(٢) هؤلاء القوم : بنو هاشم .
(٣) نكلوا به : اجعلوه عبرة.

ـ أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن خلف على بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال : يا رسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى ؟ فإذا لعنت عليا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخرجن من المسجد ثم لا أعود إليه .

فأمسك معاوية عن لعن على بن أبى طالب حتى مات سعد بن أبى وقاص ..

فلما مات سعد سنة خمس وخمسين من الهجرة لعن معاوية أبا الحسن على المنبر وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر .. ففعلوا .

فكتبت أم المؤمنين أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاوية :

إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم وذلك أنكم تلعنون على بن أبى طالب ومن أحبه ، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله ..

فلم يلتفت معاوية بن أبى سفيان لقول زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وراح يلعن أبا الحسن على المنبر .

وكذلك فعل الخلفاء الأمويون بعد معاوية ..

حتى جاء الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز .. فأمر بالإقلاع عن لعن ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل مكانه :

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم ﴾

وقيل جعل مكان لعن على ذلك :

﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُ بالْعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذي القُرْبَى وَيَنْهَى عنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكرِ والْبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾[1] .

وقيل :

بل جعلهما جميعا فاستعمل الناس ذلك في الخطبة .

لقد اختار الخليفة الذكى التقى الآية الأولى والثانية لما لهما من إشارة معنوية إلى ما يجب أن يكون بين المؤمنين من تناسى الأحقاد والأضغان وتطهير القلوب من الغل ، وتذكر الأمويين بأن القرابة التى تربطهم ببنى هاشم ، وأن لهذه القرابة حقوقاً توجب عليهم أن يمسكوا ويصونوا ألسنتهم عن سبهم والوقيعة فيهم .

* * *

عمر بن عبد العزيز في بيته

كان دخل الخليفة العادل أربعين ألف دينار نصيبه من ميراث أبيه عبد العزيز بن مروان .. فلما ولى الخلافة رأى أن هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه أمراء بنى أمية وهو معهم لم يبلغوه بعرق الجبين ، فهى حق من حقوق ملايين الناس وأقواتها سلبت

(١) سورة النحل الاية : ٩٠ .

بغير حق وبغير سلطان .. وعلى الفور ردها إلى بيت المـال .. بل تنازل عن كل درهم فى راتبه المخصص على عـهـد رسـول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه . ليس هذا فحسب ، بل تنازل عن كل درهم فى راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين ..

واكتفى الخليفة الزاهد من دنياه كلها بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بحر ماله ولم تكن تغل[1] عليه أكثر من مائتى دينار فى العام راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتا دينار فى العام لرجل كان دخله من قبل أربعين ألف دينار ؟ مائتا دينار لحاكم أعظم وأكبر وأغنى امبراطوريات عصره وعالمه ؟

لقـد رفع خـامس الخلفـاء الراشـدين الحق شـريعـة والعـدل منهاجا .

لقد حرم نفسه من حقه المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه .. أو ثلثه أو ربعه ، لكنه رفضه جميعاً إلى آخر درهم منه ..

وألبست فاطمة بنت عبد الملك الجارية التى كانت تعجب عمر بن عبد العزيز وطيبتها ، ثم قدمتها إليه وقالت :

ـ وهبتها إليك يا أمير المؤمنين .

ولمـا أخلتها به أعرض عمر بن عبد العزيز عنها .. فتعرضت الجارية له فصدف عنها[2] فقالت الجارية :

---

(١) تغل : تدر .

(٢) صدف عنها : أعرض عنها .

ـ يا سيدى فأين ما كان يظهر لى من محبتك إياى ؟

فقال الخليفة التقى الورع :

ـ والله إن محبتك لباقية كما هى ، ولكن لا حاجة لى فى النساء فقد جاءنى أمر[1] شغلنى عنك وعن غيرك .

ثم تساءل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

ـ ما أصلك ؟ ومن أين جلبوك ؟

قالت الجارية :

ـ يا أمير المؤمنين إن أبى أصاب جناية ببلاد المغرب فصادره موسى بن نصير فأخذت فى الجناية وبعث بى إلى الوليد فوهبنى إلى أخته فاطمة زوجتك فأهدتنى إليك .

قال أبو حفص :

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون كدنا والله نفتضح ونهلك .

ثم أمر الخليفة العادل برد هذه الجارية إلى بلاد المغرب مكرمة ..

وعاد الخليفة الورع يوماً إلى بيته بعد صلاة العشاء ولمح بناته الصغار ، فسلم عليهن كعادته وبدلاً من أن يسارعن إليه بالتحية كعادتهن رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن إلى الباب .

فتساءل خامس الخلفاء الراشدين :

ـ ما شأنكن ؟

(١) أمر : الخلافة وأمور الرعية .

قالت بناته :

ـ لم يكن لدينا ما نتعشى به سوى عدس وبصل .. فكرهن أن تشم أفواهنا .

كرهن أن تشم أمير المؤمنين ريح البصل ؟

فبكى الخليفة العادل . ثم قال :

ـ يا بناتى .. ما ينفعكن أن تعشين الألوان والأطايب ، ثم يذهب بأبيكن إلى النار ؟

ورأت إحدى بنات عمر بن عبد العزيز صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين فأرسلت إحداها إلى أبيها وقالت له ضارعة :

ـ اشتر لى مثلها .

فدعى أمير المؤمنين مولاه مزاحم وأمره أن يأتى بجمرتين من نار ..

فلما أحضر مزاحم الجمرتين قال الخليفة العادل لابنته :

ـ إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك جئتك بلؤلؤتين كهذه .

لقد كان عمر بن عبد العزيز يرى نفسه قدوة وأن هذه القدوة لا تنحصر فيه هو كخليفة وحاكم بل وحسب منهجه وتقديره وأن هذه المسئولية تشمل أهله جميعاً حتى بناته الصغار .

وكان عمر بن عبد العزيز يسكن داراً متواضعة .. ترك قصور الخلافة وآوى إلى هذه الدار التى لا تشهد إيقاد النار إلا لماما ..

وكان لعمر مرقاتان[1] يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته .. فتهدمت إحدى المرقاتين .. فأعاد بناءها رجل من أهله.

وجاء الحاكم العادل ووجده فسأله :

ـ من صنع هذا ؟

قالوا :

ـ فلان .

قال حفيد الفاروق :

ـ إلى به .

فلما جاء الرجل قال له عمر بن عبد العزيز :

ـ ويحك أتفقت على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة[2] والله لولا أن يكون هدمى لها إفساد بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه .

ودخل على عمر بن عبد العزيز فى داره أحد خاصته المقربين فيجده يركن منها تغطيه الشمس وقد دثر[3] جسده كله فى إزار فحسبه الزائر مريضاً فسأله :

ـ ما بك ؟

قال أمير المؤمنين الزاهد :

ـ لا شيء غير أنى أنتظر ثيابى حتى تجف .

فتساءل الزائر :

---

(١) مرقاة : درج السلم .

(١) لبنة : حجر .

(١) دثر : غطى .

ـ وما ثيابك يا أمير المؤمنين ؟

قال خامس الخلفاء الراشدين :

قميص ورداء وإزار .

فقال الزائر :

ألا تتخذ قميصاً آخر ورداء وإزاراً ؟

قال الخليفة الزاهد :

ـ كان لى ثم بليت .

فتساءل صاحبه :

ـ ألا تتخذ سواها ؟

فقال عمر بن عبد العزيز وقد شرقت كلماته بدموعه وأجهش بالبكاء مسنداً جبهته على راحتى يديه :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فِى الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

ودخلت فاطمة بنت عبد الملك على زوجها أبى حفص يوماً وهو جالس فى مصلاه واضعاً خده على يديه ودموعه تسيل على خديه فقالت :

ـ ما لك ؟

قال خامس الخلفاء الراشدين :

ـ ويحك يا فاطمة قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت فتفكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعرى المجهود ،

---

(١) سورة القصاص الآية : ٨٣ .

واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والشيخ الكبير ، وذى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت أن لا يثبت لى حجة عند خصومته فرحمت نفسى فبكيت .

وناداه رجل يوماً :

ـ يا خليفة الله فى الأرض :

فأخذت الخليفة الورع الرعدة وصاح فى الرجل :

ـ مه[1] .. إنى لما ولدت أسمانى أهلى عمر فلو ناديتنى يا عمر أجبتك ، ولما كبرت أخترت لنفسى كنية فكنيت أبا حفص لو ناديتنى يا أبا حفص أجبتك . ولما وليتمونى أموركم سميتمونى أمير المؤمنين ، فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين أجبتك . وأما خليفة الله فى الأرض فلست كذلك . إنما خلفاء الله فى الأرض رسله وأنبياؤه .

وكتبت الحجبة لأمير المؤمنين عمر ليأمر للكعبة بالكسوة المعتادة كما كان يفعل خلفاء بنى أمية من قبله .

فكتب عمر بن عبد العزيز :

إنى رأيت أن أجعل ذلك فى أكباد جائعة فإنه أولى بذلك من البيت .

---

(١) مه : أكفف .

وكتب كتاباً يقول فيه :

اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات ، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعا .

ومنع الخليفة العادل الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة، وأرسل بذلك كتاباً حازماً إلى ولاته فى جميع الأقاليم قال فيه :

مروهم فليصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم وليكن فيه أطناب دعائهم وصلاتهم . ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات . وليستنصروا الله ، وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين ، وليدعوا ما سوى ذلك .

لقد جعل الخليفة الذكى الورع أهل بيته قدوة طائعين راغبين وحمل أمراء بنى أمية جميعاً على حمل هذه القدوة طائعين وإن شاءوا فكارهين .. فلم يدعهم يتبذخون باسمه ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنما .. فإذا كان ولا بد فلتكن هذه القرابة ملجأ لهم من أطماعهم وشهواتهم ومغنماً بالتزامهم منهج خامس الخلفاء الراشدين .. أما دون ذلك فلن تكون دنيا بنى أمية وبنى مروان فى عهد الخليفة الزاهد كدنياهم قبل عهده .

فلن يظلوا طبقة فوق الرعية ..

وعبثا حالوا بكل ضراعة الابقاء على بعض امتيازاتهم .. فلما أخفقوا [1] راحوا يناورون ولما فشلوا أخذوا يهددون .. ولكن معجزة الإسلام كان لهم بالمرصاد ودفع بهم جميعاً إلى طريق العدل والحق ، وبعث إليهم بقدر من المال كل أمير

(١) أخفقوا : فشلوا .

وأميرة يدبرون به أمورهم .. يستقبلون به حياتهم الجديدة الخشـنة فتنادوا واجتمعـوا وقرروا أن يبعثـوا صديقـاً لعمر بن عبد العزيز يرجوه باسم أمراءِ بنى أمية وبنى مروان وأن يرفع لهم العطاء .

فلما ذهب هذا الصديق إلى معجزة الإسلام .. قال له :

ـ والله لقد ندمت على هذا الذى أعطيته إياهم وإنى لأعلم أن فى المسلمين من هو أحق به وأحوج إليه منهم .

وعاد مبعوث بنى أمية وبنى مروان يقرع آذانهم بكلماته المنذرة اللافحة :

ـ يا بنى أمية .. لا تلوموا إلا أنفسكم فقد عمدتم[1] إلى صاحبكم عبد العزيز بن مروان فزوجتموه حفيدة عمر بن الخطاب فجاءتكم بعمر بن الخطاب ملفوفاً فى ثياب عمر بن عبد العزيز فلا تلوموا إلا أنفسكم .

تواضع عمر بن عبد العزيز

على الرغم من أن عمر بن عبد العزيز ربيب النعمة وخليفة ابن الخلائف وصهر الخلائف إلا أنه ارتدى ثوب التواضع فكان متجملاً بسهولة الطباع ودماثة الأخلاق ، ولين المعاملة لا يداهن ولا يرائى فى تواضعه بل يندفع إلى هذا التواضع بشعور قوى خفى يشعره بأنه كلما تواضع كان أقرب إلى الرقيب السميع البصير ، وكان أكثر رضا عن نفسه .

سمر عند خامس الخلفاء الراشدين ذات ليلة بعض أصدقائه

(١) عمدتم : قصدتم .

فاعتل[1] السراج وكان يمكنه أن يستدعى خادمه لإصلاحه ولكن مزاحماً كان نائماً فلم يرد أن يقلقه وهم رجاء بن حيوة الذى كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز أن ينهض لإصلاح السراج فقال الخليفة الورع :

ـ ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه .

ثم نهض خامس الخلفاء الراشدين فأمد السراج بالزيت وأصلحه ..

ولما استكبر أصدقاؤه ذلك قال أبو حفص :

ـ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ولؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه .

وترامى إلى مسمع الخليفة التقى الورع أن ابنه اشترى فصاً بألف درهم فتختم به[2] فكتب إليه عمر بن عبد العزيز :

عزيمة منى إليك إلا بعت الفص الذى اشتريته بألف درهم وتصدقت بثمنه واشتريت فصاً بدرهم نقشت عليه : رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .. والسلام .

وكان من تواضع الخليفة الخامس أنه لا يحب أن يتميز على غيره من الناس ، فإذا كان هناك جنازة أقبل يشارك فى حمل النعش أكثر من مرة ولا يكاد يعرفه أحد وسط الناس ؛ لأنه لا يتميز عليهم على الرغم من أنه الخليفة باشارة أو مظهر خاص .

---

(١) اعتل : ضعف .

(١) تختم به : جعله خاتماً فى أصبعه .

وكان عمر بن عبد العزيز إذا دخل مجلساً قام الناس فيقول:

ـ يا معشر الناس إن تقوموا نقم ، وإن تقعدوا نقعد فإنما يقوم الناس لرب العالمين .

وجاءت إلى بيت خامس الخلفاء الراشدين امرأة تطلب انصافه ومعونته وجلست امرأته فاطمة بنت عبد الملك مع المرأة ، فدخل عمر بن عبد العزيز بيته وانتحى ناحية ، وأخذ يسكب على نفسه الماء ليتوضأ . فقالت المرأة لفاطمة بنت عبد الملك :

ـ ألا تأخذين عليك ثيابك من هذا الرجل ؟ يرى رأسك مكشوفة ؟

فقالت فاطمة بنت عبد الملك :

ـ هذا أمير المؤمنين يسكب لنفسه وضوءاً .

وبعد أن فرغ عمر بن عبد العزيز من صلاته أقبل على المرأة فقضى لها حاجتها .

ونزل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فرأى أطباقاً فيها فاكهة ونقل فسأل عن سببها فقالوا له :

ـ إن صاحب الدير يطعم الناس .

وبعد قليل قدموا إليه طبقاً فيه فستق ولُوز .

وكأنما أحس عمر بن عبد العزيز أن الناس لم يقدم إليهم فستقا ولوزاً فتساءل :

ـ هل تلك الأطباق مثل هذا ؟

فقال صاحب الدير :

ـ لا .

فرفض الخليفة الزاهد أن يأكل من طبقه المتميز عن غيره وقال لصاحب الدير :

ـ خذ طعامك .

* * *

حرص عمر بن عبد العزيز على مال الدولة

لا يكون الحاكم أميناً رشيداً عادلاً إلا إذا كان على مال الدولة حريصاً وعلى حقوقها أميناً ؛ لأن من ينهب ويسرق مال الناس أو يضيع حقاً من حقوق الرعية أو يغتالها فى قليل أو كثير مما لها لا يكون راعياً لها ولا جديراً بقيادتها ، بل يكون عدوها الجدير بلعنها وطردها .

ولقد ضرب خامس الخلفاء الراشدين المثل الأعلى فى الحرص على مال رعيته والسهر على حقوق أفراد دولته .

كيف تعرف الرعية أمانة الحاكم ؟

إن خير مقياس يقاس به أمانة الحاكم ونزاهته واستقامته وعدالته هو أن تقارن بين حاله قبل الحكم وحاله أثناء الحكم وبعده .. فإذا أثرى بعد فقر وامتلأ بعد خلو ، واتسع فى دنياه بعد ضيق .. فقد فتح على نفسه أبواب الظن السيء من الناس وكان لصاً .

وإذا لم تتغير حال الحاكم فهو على خير ..

وإن قل مال الحاكم بعد الحكم فذلك أفضل وأنبل ..

وقد حرص أبو حفص على مال الدولة منذ اليوم الأول الذى تولى فيه الخلافة ، فأعرض عن مواكب الخلافة وضمها إلى بيت مال المسلمين . ثم ضربوا له سرادقات وحجراً لم يجلس فيها أحد قط ، وكانت تضرب للخلفاء الذين سبقوه أو ولايتهم فتساءل عمر بن عبد العزيز :

ـ ما هذه ؟

قالوا :

ـ إنها سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلى .

فقال الخليفة العادل لخادمه مزاحم :

ـ يا مزاحم ضم هذه لأموال المسلمين .

وبدأ عمر بن عبد العزيز فطبق مبدأ الحرص على مال الدولة على نفسه وأهل بيته وذوى قرابته من الناس .

ودقق عمر بن عبد العزيز فى انفاق الدولة وحاسب عليها حساباً دقيقاً ، ولم يرتض الإسراف فيها ولو فى أقل الأشياء حتى بلغ من أمره فى ذلك أن علم ولاته وعماله الاقتصاد حتى فى حجم الخطابات التى يكتبونها ، وفى غلظ سن القلم الذى يكتبون به ، فلا داعى لأن يكون فى ورقة الخطاب مكان خال دون استعمال ، بل عليهم أن يجعلوا الورقة على قدر الكتابة ولا

داعى للاطناب والتطويل فخير الكلام ما قل ودل ، وإذا كتبوا فلتكن كتابتهم بقلم رفيع غير غليظ جليل .

وكان أمراء بنى أمية إذا خرج أحد منهم إلى المسجد ليلا يوقد بين يديه شموع من بيت المال تنير الطريق وتزين الموكب وتظهر نوعاً من الأبهة ، وكان هذا الايقاد لوناً من الإسراف فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أبطل هذا توفيراً لمال بيت مال المسلمين .

وكان خامس الخلفاء الراشدين يحذر الحذر كله أن يأخذ شيئاً من بيت المال أو يختلط بماله شيء منه أو ينتفع بأمر من أمور المسلمين لا حق له فيه .

فقد بعث عمارة بن نسى مع أبى شيبان سلتين من الرطب[1] إلى عمر بن عبد العزيز فحملهما أبو شيبان على دواب البريد ، فلما علم الخليفة العادل بذلك رفض أن يأكل من الرطب وكلف أبا شيبان أن يبيع السلتين ، فباعهما أبو شيبان لرجل من بنى مروان بثمانية عشر درهما وأمره عمر بن عبد العزيز أن يلقيها فى بيت المال .

وبعد قليل أهدى الرجل المروانى سلتى الرطب إلى عمر بن عبد العزيز فوضع واحدة بين أيدى من حوله فأكلوا منها وأرسل الأخرى إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك .

وكان لعامة المسلمين مطبخ يغذيهم ويعشيهم وكان عمر ابن عبد العزيز يحضرهم أحيانا وهم يأكلون ، فإذا دعوه

(١) الرطب : أول ما ظهر الرطب .

لمشاركتهم فى الطعام وألحوا عليه وضع درهمين من صلب ماله فى نفقة المطبخ وأكل .

وذات ليلة جاء الخليفة العادل رسول من بعض الجهات ليخبره عن حالها ، فدعا عمر بن عبد العزيز بشمعة فأوقدت وجلس الرسول وجلس أبو حفص فسأله عمر عن حال أهل البلد ومن فيها من المسلمين وأهل العهد وكيف سيرة الوالى وكيف الأسعار وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء ؟ وهل أعطى كل ذى حق حقه ؟

فأنبأه الرسول بجميع ما علم ..

ولما فرغ الخليفة الورع العادل من أسئلته أخذ الرسول يسأل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

ـ كيف حالك فى نفسك وبدنك ؟

فأشار عمر بن عبد العزيز بيده : أن انتظر .

ثم نفخ أبو حفص الشمعة فانطفأت .. ونادى :

ـ يا غلام على بسراج .

فأحضر الغلام سراجاً من بيت عمر بن عبد العزيز فتيلته لا تكاد تضىء .. فأشار عمر للرسول بيده وقال :

ـ الآن سل عما أحببت .

فسأله الرسول عن عياله وأهل خزنته ومن يعنى بشأنه .

فأخبره عمر بن عبد العزيز عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته .

وعجب الرسول من حادثة الشمعة وأراد أن يعرف سرها فقال لأبى حفص :

ـ يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمراً ما رأيتك فعلت مثله .

فتساءل عمر بن عبد العزيز :

ـ وما هو ؟

قال الرسول :

ـ اطفاؤك الشمعة عند سؤالى لك عن حالك وشأنك .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ يا عبد الله إن الشمعة التى رأيتنى أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تضىء بين يدى فيما يصلحهم .. فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين .

* * *

عمر بن عبد العزيز والقرآن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب.

فالقرآن هو دستور السماء الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يستقيم لمسلم إسلام ولا يتم له إيمان بدون رابطة له مع القرآن المجيد ، فهو الغيث الإلهى الذى تنزل من لدن الرحمن الرحيم على الأرض الجدبة القاحلة فأحيا مواتها .

إنه مأدبة الله .

وقد حفظ عمر بن عبد العزيز القرآن وهو غلام حدث ثم أدمن القراءة فيه فكان يألف المصحف ولا يكاد يمر عليه يوم دون أن يتناوله ويتلو فيه جانباً من القرآن سواء أكان يريد تثبيت ذلك الجانب إن كان محفوظاً من قبل أم يريد استذكاره واسترجاعه إذا كان ند عنه[1] .

وكان عمر بن عبد العزيز يقبل على مأدبة الله بالسمع والبصر والفؤاد ، ويبدأ فى تلاوته يقظ القلب وحاضر اللب طاهر الروح .. ولذلك هو يتنبه لفواصله ويتبع تنقلاته ويتأثر بألوان عباراته ويندمج فى جوه الروحى السامى ، فينال من حسه ونفسه وشعوره الشىء الكثير .

وكان عمر بن عبد العزيز كثير البكاء حين يتلو القرآن فالبكاء ترجمان حسى عما يعتمل ويعتلج فى صدره وما يحترق به كبده من زفرات .

صعد الخليفة الورع التقى العادل المنبر يوم جمعة فخطب وقرأ : ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾[2] حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ** ﴾[3] .

بكى عمر بن عبد العزيز وأبكى الحاضرين فى المسجد حتى ارتج بالبكاء .

وطلب عمر بن عبد العزيز من ابنه أن يقرأ القرآن فقال ابن عمر :

---

(١) ند عنه : نفر منه

(١) سورة التكوير الاية : ٣ .

(٣) سورة التكوير الآيتان ١٢ ، ١٣ .

ـ ما أقرأ ؟

قال الخليفة العادل :

ـ اقرأ سورة ق .

فقرأ ابن عمر بن عبد العزيز حتى بلغ قوله تعالى ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالْحَق ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** ﴾[1] فبكى الخليفة الصالح ثم قال لابنه :

ـ اقرأ ، اقرأ يا بنى .

فتساءل ابن عمر بن عبد العزيز :

ـ ما أقرأ ؟

قال أبو حفص :

ـ اقرأ سورة ق .

فقرأ ابن عمر بن عبد العزيز حتى بلغ ذكر الموت فبكى أيضاً بكاء شديداً .

وفعل ذلك مراراً .

وكان عمر بن عبد العزيز متعلقاً بحبل الله المتين ، فكان من مظاهر تعلقه بالقرآن أنه جعل آخر ما ينطق به فى يومه إذا أوى إلى فراشه قرأ:

﴿ **إنَّ رَبكُمُ الله الَّذى خَلَقَ السَّمَاوَات والأرْض فى ستَّة أيَّام ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ يُدبِّرُ الأمْرَ مَا منَ شَفيع إلا من بَعْدِ**

---

(١) سورة ق آية : ١٩ .

إذْنه ذَالكُمُ الله ربُكمْ فاعْبُدُوهُ أفَلا تَذَكروُون ﴾[1] .

ويقرأ قوله تعالى : ﴿ أفأمِنَ أهْلُ القُرىَ أن يأتِيهمُ بأسُنَا بيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾[2]

لقد كان عمر بن عبد العزيز لا يقدم على القرآن شيئاً ويضحى فى سبيله كل شىء فكان يعطى لمن انقطع لقراءة القرآن والعلم فى المسجد مائة دينار فى كل عام ، وهذا تقدير كريم من أبى حفص الذى يعرف شأن القرآن ويحرص أن يظل محفوظاً منشوراً .

واجتمع بنو مروان فقالوا :

ـ لو دخلنا على أمير المؤمنين عمر فعطفناه علينا وأذكرناه أرحامنا ؟

فدخلوا عليه فتلكم رجل منهم فمزح إليه الخليفة العادل .. فوصل له رجل كلامه بالمزاح[3] فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ لهذا اجتمعتم ؟ لأخس الحديث ولما يورث الضغائن[4] إذا اجتمعتم فأفيضوا فى كتاب الله فإن تعديتم فعليكم بمعالى الحديث .

* * *

(١) سورة يونس آية : ٣ .
(٢) سورة الأعراف آية : ٩٧ .
(٣) المزاح : الهزل
(٤) الضغائن : الأحقاد .

عمر بن عبد العزيز يأمر بتدوين الحديث

كان الناس منذ بدء الإسلام يعتمدون فى الحديث الشريف على الحفظ والاستظهار ، فلما كثرت الغزوات واتسعت الفتوحات الإسلامية ومات من حملة الحديث من مات ، وتفرق باقيهم فى البلاد وكان عند كل منهم شيء من الحديث ، وقد ينفرد بعضهم منه بما لم يسمعه سواه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقل الضبط وكاد يلتبس الباطل بالحق مست الحاجة إلى تدوين الحديث الشريف .

وكان أول من أمر بتدوين الحديث عمر بن عبد العزيز إبان خلافته إذ رأى فى تدوينه ضبطاً له وإبقاء عليه .

وقد كان أول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة من الهجرة بأمر من الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ثم كثر التدوين والتصنيف وحصل بذلك خير كثير .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم وكان عامله على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء .

وكتب الخليفة التقى الورع إلى الأفاق :

انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه .

أخلاق عمر بن عبد العزيز

كان أبو حفص كريم الشمائل حميد السجايا رفيع الخلق ، فقد كان في عصره الرجل الكامل إذا اجتمع له مكارم الأخلاق وشريف الآداب ما لم يعرف لأحد من معاصريه ، فقد كان يجرى في عروقه دم جده العبقرى الفاروق رضى الله عنه .

وكان عمر بن عبد العزيز لا ينكث[1] وعده ولا ينقض[2] عهده يعتقد الحق فيجاهر به ولا يتهيب فيه غضبة السلطان ونقمته .

أراد الخليفة الوليد بن عبد الملك إبان خلافته أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ، فقال عمر بن عبد العزيز:

ـ يا أمير المؤمنين إنا بايعنا لكما في عقدة واحدة ، فكيف نخلعه ونتركك ؟

ودخل عمر بن عبد العزيز على الخليفة سليمان بن عبد الملك في خلافته وعنده ابنه أيوب وهو يومئذ ولى عهده ،

---

(١) نكث : نكث العهد نقضه .

(١) نقض : خـان .

فقد عقد له من بعده . وجاءه إنسان يطلب ميراثاً من بعض نساء الخلفاء .

فقال سليمان بن عبد الملك :

ـ ما أخال النساء يرثن فى العقار شيئاً .

فقال عمر بن عبد العزيز فى عجب :

ـ سبحان الله وأين كتاب الله ؟

فقال الخليفة سليمان بن عبد الملك :

ـ يا غلام اذهب فأتى بسجل عبد الملك بن مروان الذى كتب فيه ذلك .

فقال عمر بن عبد العزيز ساخراً :

ـ لكأنك أرسلت إلى المصحف ـ كتاب الله ـ .

فقال أيوب بن سليمان :

ـ والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين فلا يشعر حتى يفارقه رأسه .

فقال عمر بن عبد العزيز فى جرأة وتحد :

ـ إذا أفضى الأمر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الإسلام أشد مما يخشى عليكم من هذا القول .

فقال الخليفة سليمان بن عبد الملك لابنه أيوب :

ـ مه لأبى حفص تقول هذا ؟

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ والله لئن جهل علينا يا أمير المؤمنين ما حلمنا عنه .

واقتحم رجل مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه وسب وشتم أمير المؤمنين على ملأ من المسلمين وعلى مسمع من المدينة وحاكمها . فاعتقله الوالى وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ومعه كتاب يقول فيه :

لقد هممت أن أقتله .

فلما قرأ الخليفة العادل الرسالة قال :

ـ أما والله لو أنك قتلته لقتلتك به .

واقتحم مجلس الحكم ذات ضحى رجل رافعاً صوته في وجه أمير المؤمنين بكلمات تثير غضب الحليم ..

فقال أبو حفص فى هدوء :

ـ لعلك أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان ، فأنال منك اليوم فى الدنيا ما تتقاضاه منى غدا عند الله .. ولكن لا .. فقم عفا الله عنك .

وكان الخليفة التقى يرى أن الهدايا غلولا أو شيئاً يشبه الغلول ..

جاءته يوما هدية فاعتذر عنها فقيل له :

ـ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية .

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ لقد كانت للرسول هدية ولكنها لنا رشوة .

ووضع عمر بن عبد العزيز عن أهل الذمة وأهل الكتاب

الذين اعتنقوا الإسلام ضريبة الجزية ويعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه خير من ملء الأرض ذهبا .

وقال عمر بن عبد العزيز كلمته الخالدة المضيئة :

ـ إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ، ولم يبعثه جابيا .

ولقد أرسل إليه واليه على العراق عدى بن أرطأة يقول :

ـ إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجاً حتى خشيت أن يقل الخراج[1] .

فرد عليه معجزة الإسلام :

ـ والله لوددت أن الناس كلهم يسلمون حتى نكون أنا وأنت حراثين[2] نأكل من كسب أيدينا .

كذلك راح خامس الخلفاء الراشدين يتتبع كل الضرائب التى كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعاً .

وجاء عنبسة بن سعيد أحد المقربين إلى عمر بن عبد العزيز فسأله حاجة لنفسه ، فقال أبو حفص :

ـ يا عنبسة إن يكن ما لك الذى عندك حلالاً فهو كافيك. وإن يكن حراماً فلا تضيفن إليه حراماً جديداً .

أخبرنى يا عنبسة .. أمحتاج أنت ؟

قال عنبسة بن سعيد :

(١) الخراج : الضريبة .

(٢) حراثين : زارعين .

ـ لا .

فعاد خامس الخلفاء الراشدين يتساءل :

ـ أفعليك دين ؟

قال عنبسة بن سعيد :

ـ لا .

فقال الخليفة الورع :

ـ إذن فكيف تطمع فى أن أعمد إلى مال الله فأعطيكه فى غير حاجة وأدع فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارماً لأديت عنك غرمك ، أو محتاجاً لأمرت لك بما يصلح شأنك . فليكن لك فى مالك غناء واتق الله وانظر من أين جمعته وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول هذا لكل من يسأله ما ليس له بحق .. فحول شهقات البائسين إلى بسمات متهللة وفرح غامر ، فجعل لكل مسلم كفالة وكتب إلى ولاته :

لا بد لكل مسلم من مسكن يأوى إليه . وخادم يكفيه مهنته . وفرس يجاهد عليه عدوه . وأثاث فى بيته .. فوفروا ذلك كله ، ومن كان غارماً [1] فاقضوا عنه دينه .

وسخا معجزة الإسلام على ولاته برواتب كبيرة حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .. كما أمر لكل أعمى فى دولته بقائد يقوده ويقضى له أموره على حساب بيت المال ، وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم فى

(١) الغريم : الذى عليه الدين .

جميع أقطار دولته العريضة المترامية .. فاختفى الفقر والفقراء فى عهد معجزة الإسلام ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيراً يأخذها ويبسط يده إليها .

فقد كان عمر بن عبد العزيز يرعى الحق ويذود[1] عنه ويقر العدل بين رعيته ورفع الظلم والمظالم عن كواهلهم .

بكى عمر بن عبد العزيز يوماً فقيل له :

ـ ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة الورع :

ـ تلومنى أن أبكى ولو أن سخلة[2] هلكت على شاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة ؟

وجاء عمر بن عبد العزيز تفاح من الفيء ، فجعل يقسمه بين المسلمين فجاء ابن له صغير فتناول تفاحة فانتزعها أبو حفص من يد ابنه قبل أن يضعها فى فيه ، فسعى الطفل إلى أمه مستعبراً باكياً ، فأرسلت فاطمة بنت عبد الملك إلى السوق واشترت تفاحاً ، فلما رجع أمير المؤمنين عمر إلى بيته وجد ريح التفاح تصافح أنفه فقال :

ـ يا فاطمة هل أتيت شيئاً من هذ الفيء ؟

قالت فاطمة بنت عبد الملك :

ـ لا .

وقصت عليه قصة ابنه الصغير والتفاحة .

(١) يذود : يدافع .
(٢) سخلة : ولد الغنم من الضأن أو المعز ساعة وضعه .

فقال عمر بن عبد العزيز :

ـ والله لقد انتزعتها من ابنى لكأنما انتزعتها من قلبى ، لكن كرهت أن أضيع نفسى من الله عز وجل بتفاحة من فىء المسلمين .

وذات يوم جمعة قال الخليفة الورع :

ـ أسخنوا لى ماء أغتسل به للجمعة .

فقيل له :

ـ ما عندنا حطب نوقده .

وذهبوا بالقمقم إلى مطبخ المسلمين .. وجاءوا به وهو يفور[1] .

فقال أمير المؤمنين عمر :

ـ ألم تخبرونى أنه ليس عندكم حطب ؟ لعلكم ذهبتم به إلى مطبخ المسلمين ؟

قالوا :

ـ نعم .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ ادعوا لى صاحب المطبخ .

فلما جاءه قال له :

ـ قيل لك هذا قمقم أمير المؤمنين فأوقدت تحته ؟

قال صاحب مطبخ المسلمين :

(١) يفور : يغلى .

ـ لا والله يا أمير المؤمنين ما أوقدت تحته عوداً واحداً ، وإن هو إلا جمر لو تركته لخمد حتى يصير رماداً .

قال أبو حفص :

ـ بكم أخذت الحطب ؟

قال صاحب مطبخ المسلمين :

ـ بكذا .

قال عمر بن عبد العزيز لأهله :

ـ أدوا إليه ثمنه .

لقد كان عمر بن عبد العزيز لا يحابى فى الحق قريباً لقرابته، ولا عظيماً لعظمته ، بل يحق الحق للحق ، ويسوى فى عدله بين الجميع ، فقد خاصم مسلمة بن عبد الملك عند أهل دير إسحق وهو ابن عمه وصهره فقال له عمر بن عبد العزيز :

ـ لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدى ، ولكن وكل بخصومتك من شئت إلا فجاث القوم بين يدى .

فوكل مسلمة بن عبد الملك مولى له بخصومته .. فقضى عمر بن عبد العزيز عليه .

وكان عمر بن عبد العزيز يتقدم إلى الحرس إذا خرج عليهم ألا يقوموا له ويقول لهم :

ـ لا تبتدئونى بالسلام إنما السلام علينا لكم .

وسأل يوماً رجلاً :

ـ من سيد قومك ؟

قال الرجل :

ـ أنا .

فقال أبو حفص :

ـ لو أنك كذلك لم تقله .

وجعل عمر بن عبد العزيز شعاره الزهد فى الدنيا والإعراض عن متعها الزائلة .

قال مالك بن دينار :

ـ الناس يقولون مالك بن دينار زاهد ، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فتركها وقد فاضت خطبه وكتبه بالوعظ والتزهيد فى الدنيا والاستعداد للحساب يوم المآب .

لقد رد عمر بن عبد العزيز المظالم إلى أهلها وصرف كل ذى حق حقه ، وكان مناديه فى كل يوم ينادى :

ـ أين الغارمون[1] ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كل هؤلاء ، حتى أغنى كلا من هؤلاء .

لقد ملأ الأشج الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلما ، فتحققت رؤيا جده عمر بن الخطاب :

ـ من هذا الذى من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر؟

ـ ليت شعرى من ذو الشج[2] من ولدى الذى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ؟

(١) الغارمون : غريم : الذى عليه دين .
(٢) ذو الشج : الشج : الجرح فى الرأس أو الوجه .

ـ إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً .

وتحققت نبوءة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم :

ـ إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها .

لقد كان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، وإن كان هو أول من هذا الحق لإمامته وعموم ولايته وقيامه واجتهاده فى تنفيذ الحق ، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة جده عمر بن الخطاب ، وكان كثيراً ما تشبه به .

مرض عمر بن عبد العزيز

مرض الخليفة الورع التقى بالسل وقيل إن مولى له سمه فى طعام أو شراب وأعطى على ذلك ألف دينار ، فاشتكى عمر بن عبد العزيز ولزم الفراش ، فلما جاء الأطباء قالوا :

ـ لقد دس السم فى طعامك .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ لقد علمت يوم سقيت السم .

ثم استدعى مولاه الذى سقاه فقال له :

ـ ويحك ما حملك على ما صنعت ؟

قال الخادم :

ـ ألف دينار أعطيتها .

فقال له الخليفة العادل :

ـ هاتها .

فأحضر الخادم الألف دينار .. فأمر الخليفة الخامس فوضعت فى بيت المال .. ثم قال :

ـ اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك .

لقد عفا عنه بعد أن اعترف أنه سقاه السم أى تسامح هذا ؟ يعفو ويصفح وهو قادر أن . . . ؟

وقيل لعمر بن عبد العزيز :

ـ تدارك نفسك .

فقال خامس الخلفاء الراشدين :

ـ والله لو أن شفائى أن أمس شحمة أذنى أو أوتى بطيب[1] فأشمه ما فعلت .

فقيل له :

ـ هؤلاء بنوك[2] ألا توصى لهم بشىء فإنهم فقراء ؟

فقال عمر بن عبد العزيز :

﴿ إنَّ وَلِّىَ اللهُ الَّذى نَزَّلَ الكتَابَ وَهُوَ يتَولَّى الصَّالحينَ ﴾[3]

والله لا أعطيهم حق أحد وهم بين رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه ، فلا أبالى فى أى واد هلك .

ثم استدعى عمر بن عبد العزيز أولاده فودعهم وعزاهم بهذا، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال :

ـ انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم .

(١) طيب : عطر .
(٢) بنوك : أولادك كانوا اثنى عشر .
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٩٦ .

وفاة عمر بن عبد العزيز

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه ابن عمه وصهره مسلمة بن عبد الملك فقال له :

ـ يا أمير المؤمنين إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالة[1] ولا بد من شيء يصلحهم فلو أوصيت بهم إلى أو إلى نظرائي من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله .

فقال عمر بن عبد العزيز لمن حوله :

ـ أجلسوني .

فأجلسوه .. فقال :

ـ الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة فإني أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم حقاً هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيي وولي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فسيجعل الله من أمره يسرا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله .

ثم أشار عمر بن عبد العزيز بيده وقال :

ـ ادعوا لي بني .

(١) عالة : فقراء .

فجاء بضعة عشر ذكرا .

فجعل الخليفة الورع يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى أغرورقت عيناه بالدمع ثم قال :

ـ بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ، يا بني إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني إني ميلت رأيي بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار . قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم .

وقيل لمعجزة الإسلام :

ـ يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة فإن قضى الله موتا دفنت في القبر الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر.

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ والله لأن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار فإنه لا صبر لي عليها أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أني لذلك الموضع أهل.

وكان مرض عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من قرى حمص ، وكانت مدة مرضه عشرين يوماً .

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال :

ـ أجلسوني .

فأجلسوه .. فقال :

ـ إلهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت . إلهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت . إلهى أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ولكن لا إله إلا الله .

ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا :

ـ إنك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين .

قال عمر بن عبد العزيز :

ـ إنى لا أرى حضر ما هم بإنس ولا جان .

وأوصى الخليفة العادل رجاء بن حيوة أن يغسله ويكفنه وإذا حل عقدة كفنه أن ينظر إلى وجهه .

ثم قال لأهله :

ـ اخرجوا عنى .

فخرجوا .. وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز فسمعاه يقول :

ـ مرحباً بهذه الوجوه التى ليست بوجوه إنس ولا جان .

ثم قرأ : **﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فى الأرض وَلا فَسَاداً والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾**(1) .

ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه وقد غمض وسوى إلى القبلة فقبض .

فكان آخر ما نطق به حفيد عمر بن الخطاب آية من القرآن.

(1) سورة القصص آية : ٨٣ .

وتوفى الخليفة الزاهد فى رجب سنة إحدى ومائة ـ وقيل : ثنتين ومائة ـ من الهجرة، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام .

ومات عمر بن عبد العزيز وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر.

يقول رجاء بن حيوة :

ـ ففعلت ما أمرنى به عمر بن عبد العزيز .. ونظرت إلى وجهه فإذا وجهه مثل القراطيس[1] بياضاً .

وكان كل من دفن من الخلفاء الأمويين والمروانيين إذا حل عن وجوههم الأكفان فإذا هي مسودة .

ولما وضع خامس الخلفاء الراشدين عند قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب فقرأوها فإذا فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار .

فأدخلوها بين أكفانه ودفنوا الصحيفة معه فى دير سمعان بحمص .

قالوا :

ـ ما احتاج أحد من أولاد عمر بن عبد العزيز ولا افتقر .

فقد رأى الناس بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً فى سبيل الله .

---

(١) القراطيس : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه ويقصد به الورق .

وكان أولاد سليمان بن عبد الملك مع كثرة ما ترك لهم من الأموال يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز ، لأن أبا حفص وكل ولده للقوى الرزاق المتين ، أما سليمان فقد وكل أولاده إلى ما يدعون لهم فضاعت أموالهم فى شهوات أولادهم .

* * *

المـراجـع

* القرآن الكريم

* الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبى .

* تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير .

* الطبقات الكبرى ـ ابن سعد كاتب الواقدى .

* البداية والنهاية ـ ابن كثير .

* إحياد علوم الدين ـ أبو حامد الغزالى .

* تاريخ الخلفاء ـ السيوطى .

* مروج الذهب ـ المسعودى .

* خلفاد الرسول ـ خالد محمد خالد .

الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير .

* الزهد ـ أحمد بن حنبل .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب٧٣٤٦/ ١٩٩٤